

يقدم الأستاذ بوداود بومدين من خلال كتابه هذا بحثا هاما حول تجارة بني ميزاب، مختصرا، مركزا، وعلميا سيدفع بقرانه إلى الشغف والاهتمام بمعرفة المزيد من الجوانب الأخرى، لا عن التجارة فقط عند بني ميزاب، بل لاستكشاف هذه التجربة الإسلامية الرائدة والفذة والفريدة، والتعرف على مجتمعتها الأصلية وهيناته ونظامه الاجتماعي، المستمد من مذهب الإباحي، في زمن نكاد أن نهتر أمام عواصف العولمة والتغريب والضياع وفقد كثير من ملامح خصوصيتنا الدينية والقومية.

تجارة بني ميزاب



سيرة المنهج الإسلامي في إدارة الأعمال التجارية

مختصرات مكتبة عبد الوهاب

552 2

رياض العلوم



أبجادة بنغل مبراب

بقلم الأستاذ:

بوداود بومدين

مختص في إدارة الأعمال

تقديم:

الأستاذ: بكلي محمد الوهاب

وزير السياحة والصناعات التقليدية سابقاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

تسعة أعشار الرزق

في التجارة

حديث شريف



تجارة بني ميزاب
تأليف: أ. بوداود بومدين.

جميع الحقوق محفوظة لدار:
رياض العلوم للنشر والتوزيع - الجزائر -
الهاتف: 00213 071 612 405
00213 071 600 785 :
E-mail : riadhouloum@hotmail.com

الطبعة الأولى: 2006م / 1427هـ

رقم الإيداع: 2006-3485
ردمك: ISBN 9961-9578-8-1

﴿الفهرس﴾

- الإهداء 9
- كلمة الناشر 11
- تقديم الأستاذ "بكلي عبد الوهاب" 17
- آليات التنظيم والتسيير التجاري عند المجتمع الميزابي 21
- من هم بنو ميزاب ؟ 23
- 1- خصوصية المذهب الإباضي 27
- على الصعيد العقائدي 28
- الوعد والوعيد 28
- الولاية والبراءة 29
- على الصعيد الفقهي الاقتصادي 30
- 2 - السيرورة التاريخية 39
- الدولة الرستمية 39
- وارجلان وسدراتة 47
- انتقال الإباضية إلى وادي ميزاب 51
- 3- التنظيم الإداري عند المجتمع الميزابي 65
- المخطط التنظيمي للمجتمع الميزابي 66
- مجلس عمي سعيد 67
- مؤتمر لا إله إلا الله 69

الإهداء

إلى من تعلمت منه السماحة والمحبة
وحب المسلمين جميعا فكان النبراس
الذي أنار قلبي حبه سيدي وحببي
محمد بن عبد الله
عليه أفضل الصلاة والسلام

إلى روح والدي عبد القادر - رحمه الله - الذي كان أول
من علمني الحرف

- حلقة العزابة 69
العزابة لغة واصطلاحها 69
مهام حلقة العزابة 71
حلقة إيروان 73
هيئة إمصطوردان 74
هيئة تمسريدين 76
مجلس العوام 77
مجلس العشيرة 78
مجلس الأسرة 79
الأمناء 80
4- نظام الغربية وآليات التسيير التجاري 86
نظام الغربية 86
أسباب الغربية 86
تطور نظام الغربية 88
تنظيم التجار الميزابيين في نظام الغربية 91
البعد الاجتماعي والثقافي لنظام الغربية 100
الخاتمة العامة 105

كلمة الناشر

يرى ابن خلدون ان المجتمعات تمر من خلال تطورها من الحالة البدائية الى الحالة الحضارية بثلاث مراحل هي: مرحلة الكفاف أو الضرورة ثم مرحلة تقسيم العمل، فمرحلة الرفاهية، حيث تؤدي زيادة الانتاج الى مجتمعات أكثر رفاهية تتميز بزيادة السلع وتطور الاسواق وتوسع نشاطها التجاري. ويمكن القول ان ابن خلدون كان يعتقد ان أسباب تطور المجتمع البشري وانتقاله الى مرحلة الحضارة هي: الاجتماع، ونظام تقسيم العمل، ومبدأ التعاون؛ وكل ذلك مرهون أيضا بعوامل طبيعية، مثل الاقليم والمناخ والتربة. وفي مباحث "أرنولد توينبي" في مسألة تطور المجتمعات والحضارات يرى: ان المجتمعات، في مختلف مراحل تطورها، عند مواجهتها تحديات ببنية أو بشرية معينة، ستستجيب استجابات مختلفة، أي انها تواجه مثل ذلك الحافز بردود فعل متباينة، تختلف من جماعة الى اخرى، بعضها سلبية وبعضها ايجابية. وعند استقراء الاحداث التاريخية ودراسة الواقع الذي عاش به سكان وادي ميزاب نتوصل الى انهم واجهوا فعلا ظروف بينتهم الطبيعية ومحيطهم البشري الصعبة بردود فعل ايجابية، أعطت لهم مكانة حضارية لها شواهدا كمجتمع إسلامي يمتلك دوافع حيوية واضحة، تتجلى في الطاقة الكامنة لدى الفرد والمجتمع التي تنطلق بغرض التحقيق الذاتي، وهي حسب تعبير "توينبي": [أن الشخصية النامية أو "الحضارة" تسعى الى أن تصير هي نفسها بيئة نفسها، وتحديا لنفسها، ومجال عمل لنفسها، وبعبارة أخرى: ان مقياس النمو هو التقدم في سبيل التحقيق الذاتي]. والمجتمع الميزابي يمتلك الكثير من الافراد المبدعين في أعمالهم، إضافة الى إمتلاكه ايضا الاقلية الموجهة "الطليعة" التي لم تتحول من خلال مكانتها الاجتماعية

والدينية الى سلطة تعسفية. ان النظم الاجتماعية التي تكونت في المجتمع الميزابي انطلاقا من التشريع والقيم الاسلامية ممثلة في نظام العزابة والمجتمع المسجدي ونظام العشيرة والمجالس كلها شكلت حركة تقدمية للمجتمع، بمعنى أنها ركزت على الوحدة المجتمعية من خلال التراضي والقبول في المساهمة المجتمعية من دون ضغط أو إكراه ووفق ضوابط اجتماعية واقتصادية وسياسية واضحة. كان مبدأها التحدي والاستجابة وهو الحافز والمساعد للمجتمع الميزابي وبنياته الاجتماعية لمواجهة الظروف المناخية والجغرافية وحتى البشرية المحيطة به، مهتديا بالشريعة الاسلامية ودعوة المذهب الاباضي والحرص على تطبيق مبادئه ميدانيا.

لم ينصف الباحثون بعد بني ميزاب وتجربتهم في كثير من المجالات التي ينبغي تسليط الضوء عليها والتعريف بها؛ خاصة تلك المرتبطة بتراثهم وبشهرتهم الواسعة في ميادين عديدة، خاصة في تنظيم شؤون حياتهم، وتعاملهم مع الآخرين لا في الجزائر، بل في المغرب العربي الكبير.

ان مسارهم الحضاري ترك سماته الطيبة في مناطقهم وما يحيط بها، وهو كان قد تغلغل في وادي بني ميزاب ومحيطه المغربي منذ مايزيد عن اثني عشر قرنا، ابتدأت مع بدايات الفتح الاسلامي للمغرب العربي، وما تلت من الاحداث التاريخية المتتالية ساهم بها الميزابيون بكثير من الحراك الدعوي والاجتماعي المرتبط بنشاطهم الثقافي والاقتصادي والسياسي، سواء في وادي بني ميزاب أو محيطه الجغرافي والبشري، فقبل استكشاف مناهي التجارة وطرقها وتنظيم اسسها لديهم ومن ثم النجاح فيها كان هناك جزء اساسي من سكان الوادي يعيشون على تربية المواشي، محتفظين بجزء من خصائص قبائل البدو، لكنهم في الوقت نفسه، حرصوا على إعمار قراهم ومدنهم من خلال الاعتماد على الفلاحة والاستقرار، والاستفادة من

الزراعة الموسمية منها والدائمة. وحيثما توفرت الارض والظروف المناسبة ومهما كانت المصاعب، حيث سعوا الى إستصلاحها وزراعتها وتمدينها.

كما ان الاعتماد الذاتي على ايديهم الماهرة في بعض الصناعات كنسج الخيام واللبسة من الوبر، واحيانا من الصوف، مهد الحضور لمثل تلك الصناعات والمتاجرة بمنتجاتها سواء بين مدنهم أو مع العالم من حولهم، استعانوا بالصبر على قسوة الطبيعة مؤمنين بعقيدتهم لمواجهة شظف العيش متسمين بكدهم المستمر وتقديس العمل اليدوي سواء كان ذلك للرجال أو عبر الانتاج الاسري، حيث يبرز دور المرأة فيه واضحا، فهي منتجة ومديرة للمنزل ومشرفة على تربية الاولاد عند غياب الزوج. ان الاقتصاد في النفقات وتحمل شظف العيش وفر التراكم المطلوب لرأس المال وتحريكه تجاريا وفق معاملات أكدت مصداقيتها في أسواق وادي ميزاب ثم انتشرت حوله الى المحيط والاقاليم البعيدة.

ان التنظيم الجيد للقوافل التجارية وحرصاتها والامانة التي اتصف بها التجار الميزابيون وابتعادهم عن المضاربة والاحتكار للسلع منحهم الاحترام والثقة وقد تم ذلك تحت اشراف ومتابعة حلقات العزابة في الاسواق والمدن. لقد وصلت الرقابة الاخلاقية على سلوك التجار حتى الى مراقبة المكاييل وطرق التوزيع للسلع. وظل قانونها الاساسي، اسلامي، هو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والتبئرة عن المخطأ حتى يعلن توبته، وبشهادة الاشهاد، وأمام الجماعة في المسجد.

ان الرقابة الاجتماعية باشراف المجالس وحلقات العزابة ظلت تمتلك سلطة الضبط، وحتى القرار أحيانا، على حركية المجتمع والتجارة واحدة من مكوناتها...

كان، ولا زال النظام الاجتماعي محكما، فيه من البساطة والصرامة معا وقد تأسس على جملة من التقاليد والأخلاق التي التزمت بالمثل الإسلامية وتابع تطبيقاتها. كما سهرت على تنفيذها نظم اجتماعية حددها المذهب الاباضي، إرتبطت أساسا بالمسجد وبمجلس العزابة ونظام العشيرة وتمثيلها في مجالس القرى وعلى مستوى وادي ميزاب. كما تكفل النظام الاجتماعي المحكم بأهم ميزتين هما: الشورى والديمقراطية في الرأي للفرد والجماعة ويلزم الأفراد بالطاعة عند إتفاق الجماعة، والخضوع والالتزام باحترام نوااميس المجتمع وعاداته الإسلامية.

من هنا تكفل النظام الاجتماعي باشاعة روح من التكافل والتعاون والامانة والمصداقية في المعاملات؛ مما وفر وأكسب التجارة، على مر الزمن، خصائص مميزة اعطت لتجارة بني ميزاب الازدهار والانتساع والانتشار.

رغم تلمسنا اليومي بوجود مثل تلك الظاهرة المتميزة في التجارة والمعاملات؛ الا ان الكثير من الغموض لدى البعض ظل أسير الاسئلة الكثيرة المطروحة عن سر نجاح تلك التجارة لدى بني ميزاب؟ لا في الجزائر فقط؛ بل تمتد الى خارجها من بلدان المغرب العربي.

لقد قدم الاستاذ بوداود بومدين من خلال مبحثه هذا حول تجارة بني ميزاب مختصرا تاريخيا ومعاصرا، مركزا وعلميا وموضوعيا وفر للقراء فرصة وممتعة الاطلاع على كثير من الجوانب المجهولة لدى البعض. ومن التأكيد القول انه سيدفع بقرائه الى الشغف والاهتمام بمعرفة جوانب اخرى هامة عن بني ميزاب ومجتمعهم، لا عن التجارة فقط، بل لاستكشاف، أغوار هذه التجربة الإسلامية الرائدة والفذة التي نعتز بها وهي فرصة للتعرف على المجتمع الميزابي الاصيل وهيناته ونظامه الاجتماعي في زمن كدنا

نهتز أمام عواصف العولمة والتغريب والضياع وفقد كثير من ملامح خصوصيتنا الدينية والقومية.

ولا شك في ان جهدا مثل هذا ومهما كان حجم أوراقه في هذا الكتيب، فهو بمثابة كنز من الكنوز التي يمكن ان نطلق عليها بالسهل الممتنع؛ كونه، وبأسلوبه المكثف الرصين، ودقته يكشف أيضا عن قدرات بحثية عالية للمؤلف في رصد الظاهرة والتعريف بها.

أملنا ان تكون هذه الوثيقة المختصرة ممرا وحافزا للاستكشاف والتعمق والبحث في جوهر ثقافتنا ونظمنا الإسلامية التي أثبتت نجاحها ومصداقيتها وانتشارها على يد بني ميزاب.

عن /المجلس العلمي لدار "رياض العلوم"
أ.د. عبد الكاظم العبودي

تقديم الأستاذ:

بكلي عبد الوهاب نجل الشيخ البكري - رحمه الله -
وزير السياحة والصناعات التقليدية سابقا

بسم الله الرحمن الرحيم

تفضل الأستاذ بوداود بومدين المكلف بالدراسات بإذاعة
غرداية المحلية والمختص في إدارة الأعمال، وعرض على البحث
القيم الذي أعده حول "آليات التنظيم والتسيير التجاري عند المجتمع
الميزابي من خلال مقالات الشيخ البكري" قصد المشاركة في الأيام
الدراسية العلمية الوطنية حول فكر العلامة الشيخ عبد الرحمان بن
عمر بكلي "البكري" التي تنظمها جمعية البكري الثقافية ومكتبة
الصفاء للشيخ محمد علي دبوز - رحمه الله - وجمعية الفتح وبلدة
بريان كافة. تحت رعاية معالي السيد وزير الشؤون الدينية والأوقاف
والسيد رئيس المجلس الإسلامي الأعلى والسيد والي ولاية
غرداية، وذلك في بريان أيام: 7، 8 و9 محرم 1423 هـ/ 21، 22
و23 مارس 2002م. طالبا مني أن أضع تقديمًا له فقبلت ذلك منه بكل
فرح وسرور.

وبودي يادئ ذي بدء أن أشكر الأستاذ على هذه الالتفاتة
الكريمة، وعلى لطافة أخلاقه وسمو تربيته وعلو همته وبعد نظره
خاصة إذ تصدى لمثل هذا الموضوع الهام والحساس في حياة أبناء
منطقة ميزاب العامرة.

وإنه لمن دواعي الغبطة والافتخار أن يتصدى شبابنا المثقف
إلى تراث الأوائل ليزيح عنه الستار وينفض عنه الغبار ويجليه
للأنظار ويبسطه بالطرق العلمية فيحلل التجارب وما تحتوي عليها

من دروس وعبر وقواعد ساروا عليها فحققوا نجاحات معتبرة في ظروف جد عصيبة.

لقد حاول الأستاذ بوداود بومدين توضيح الإطار الزمني والمكاني وحلل الأوضاع الدينية والاجتماعية التي تربى فيها وعليها أبناء المجتمع الميزابي، فجعلت منهم طائفة متميزة مناضلة مقتبسة سيرتها من إسوتها الحسنة محمد رسول الله (ص) الذي كان تاجرا يرتحل من بلاده المقفرة إلى بلاد الشام الزاخرة. فتكونت لها من التقاليد العريقة ما مكنها من إحكام إستراتيجية تجارية على الخصوص حسب الظروف أتت بشمارها وأثبتت كفاءتها.

وإن مما يثلج الصدر ويبشر بغد مشرق ومشرف هو عدم اكتفاء الأستاذ بإسقاط النظريات المتداولة على أوضاع عاشها أسلافنا، بل حاول أن يجد في الأنماط التي اعتمدها والوسائل التي اتخذوها نماذج بل ومدارس قد تكون حتى مراجع للدارسين. كما أشار مثلا إلى دراسة التنظيم الإداري باعتباره مدرسة جديدة في الفكر الإداري.

ومن مميزات الأستاذ في هذا البحث الجيد هو التواضع الذي هو دليل على المستوى العلمي المنبأ بخير إن شاء الله والدافع إلى الاستزادة في مواصلة دراساته.

وحبذا لو اتجهت أنظار الدارسين وجهود الباحثين من أبنائنا نحو ما تزخر به الجزائر هنا وهناك من كنوز عبر التجارب المختلفة، فيتمسكوا لها بالتمحيص ويغوصوا في بحورها إذن ليجدوا فيها الدرر الثمينة والمفاخر الكثيرة. مما يدل على عبقرية وفكر ثاقب في زمن لم يتمتع فيه الأوائل بالوسائل العلمية المتقدمة التي نلهم بها نحن اليوم.

هذا وإن إنصاف الأستاذ بوداود بومدين المجتمع الميزابي من خلال بحثه القيم ودحض الأقاويل وما افتعله المعادون لهم من

المستعمرين واليهود لزرع الفتنة والفرقة بينهم وبين أبناء عمومته من الجزائريين، وكذا إبراز تجارب لهم ناجحة في ميدان حساس مثل التجارة لمما يشكر عليه ويغبط. وتلك لعمرى شجاعة أدبية وحصافة علمية وتحضر نفتخر به جميعا ونشجع كافة شبابنا المثقف على اقتفاء أثره وحدود حدوده لمواصلة البحث والدراسة فيما لا يزال حبيس الرفوف والمكتبات من نفائس مدفونة مع الأسف ولا ينتظر سوى أمثال همهم العالية من النبهاء والمجدين

وفي الختام أملى أن يجد هذا البحث كامل الاهتمام والدراسة متمنيا أن يكون نواة وباكورة أعمال وثمار يانعة سيقدمها الأستاذ في المستقبل بحول الله. ولعل فيما أشار إليه من المواضيع مثل "الأوراق المالية في الإسلام من وجهة نظر الإباضية" وغيرها لدلالة على سداد توجهه ونبل طموحاته. سدد الله الخطى وأنجح المسعى وكلل جهوده بالتوفيق وبمستقبل زاهر.

أميين

أخوكم: عبد الوهاب بكلي
العطف يوم: 22 ذو الحجة 1422هـ
الموافق لـ: 06 مارس 2002 م

آليات التنظيم والتسيير التجاري عند المجتمع الميزابي

من خلال مقالات الشيخ البكري

لعب المجتمع الميزابي منذ عهود بعيدة دورا رياديا في المجال الاقتصادي التجاري منه على وجه الخصوص، ولذلك فقد شكل قطب نمو اقتصادي هام على خارطة الأقاليم الاقتصادية بالمغرب الأوسط وكان بحق مدعاة لاهتمام الكثير من علماء الاجتماع والاقتصاد، نظرا لانعكاسات هذا الرقي التجاري على النظم الاجتماعية، الثقافية والسياسية بوادي ميزاب. لكن القليلين فقط من حاولوا الغوص في أعماق سر تطور هذا المجتمع الجزائري الأصيل.

وما هي الخلفيات والمنطلقات التي جعلته يحتل هذا الموقع الامتيازي على مستوى السوق الجزائرية؟
وكوني أحد أبناء هذه المنطقة، وأشهد رأي العين هذا التميز الحضاري الذي انفرد به هذا المجتمع، وذلك بفضل طرق وتقنيات خاصة جعلت من رجل الأعمال الميزابي شخصية فعالة ومحترمة في عالم الاقتصاد الجزائري.

إضافة إلى كونه مجتمعا مسجديا ينطلق من مفاهيم إسلامية خالصة بفهم إياضي أصيل استطاع إلى حد كبير تجسيد النموذج الناجح لمفهوم الاقتصاد الإسلامي أي تجسيد المنهج الإسلامي في إدارة الأعمال التجارية.

إن السؤال الجوهرى الذي يطرح نفسه أساسا هو: ما هي الطرائق والميكانيزمات التي تبنّاها المجتمع الميزابي المسلم الإباذ في تنظيم وتسيير أعماله التجارية؟ أي بمعنى: ما هي الآليات

تهيكل وفقها رجل الأعمال الميزابي حتى استطاع تسيير تجارته بشكل ناجح وفعال؟

ويعتبر الشيخ البكري (الشيخ عبد الرحمان بن عمر بكلي) أحد رواد الإصلاح والعلماء الأفذاذ بوادي ميزاب الذين حاولوا من خلال مقالاتهم إبراز بعض جوانب تفسير هذه الظاهرة. والحقيقة أنه قبل تناول حيثيات الموضوع: أود الإشارة إلى أنه تعذر علي لعدة أسباب الإمام بكل ما قد كتبه الشيخ البكري في هذا الباب واعتمدت على ما جمعته في السياق العام لبحثي الذي قمت به وذلك بمحاولة تكيفه مع فعاليات هذا الملتقى المبارك إن شاء الله.

ذلك أن الشيخ البكري - رحمه الله - مدرسة متكاملة إن على المستوى العقدي الفقهي أو على المستوى التاريخي الاجتماعي الاقتصادي أو على المستوى الثقافي الفكري. وأستسمح الحضور إن بدا مني في موضوعي هذا تقصير أو خلل فما هو إلا محاولة لإبراز جزء بسيط من شخصية هذا الرجل العظيم.

من هم بنو ميزاب ؟

قبل الإجابة على فحوى السؤال الذي طرحناه آنفاً. والذي ظل يتردد في أذهان الكثير من المفكرين والباحثين وحتى عوام الشعب الجزائري لابد من التعرف بالمجتمع الميزابي أولاً:

إن كلمة بنو ميزاب أصلها: بنو مصعب، وإن كان العلامة ابن خلدون سماه - مصاب أو مضاب - وتعود تسميتهم بهذا الاسم لأنهم استوطنوا بادية بني مصعب، التي كان يسكنها قبلهم المعتزلة، وبدخول المذهب الإباضي هذه المنطقة واعتناق سكانها له على يد الإمام أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي الفرسطاني، سمي سكان تلك البادية ببني مصعب. ولأن غالبية سكان تلك البلاد من الإباضية فقد أصبح على مر الأيام اسم ميزابي - مصعبي - مرادفاً لكلمة إباضي وذلك ما ذهب إليه الأستاذ علي يحي معمر وما سنأخذ به في هذا البحث، فلفظ ميزابي دلالة على كلمة إباضي كقولنا مغربي دلالة على المذهب المالكي لأن أغلب أهل المغرب العربي مالكية.

لقد نزع الإباضية إلى بادية وجبال بني مصعب بعد سلسلة من التنقلات ابتدأت بالدولة الرستمية التي كانت أول دولة للمذهب الإباضي بالمغرب الأوسط. أنشأت على يد عبد الرحمن بن رستم سنة: 160 هـ / 777 م واستمرت إلى: 296 هـ / 909 م. وقد لعبت دوراً اقتصادياً تجارياً رائداً كما سوف نحلل ذلك لاحقاً.

بعدها نزع الإباضية إلى منطقة وارجلان وسدراتة بعد سقوط الدولة الرستمية، وقد لعبت وارجلان دوراً تجارياً هاماً، ولكن مطاردة الفاطميين لهم جعلتهم يلجئون إلى هذه الجبال للاحتماء بها. ولأننا جعلنا لفظ ميزابي مرادفاً لكلمة إباضي فإنه لزاماً علينا أن نعرف بالمذهب الإباضي، ولو بشكل مبسط ومختصر.

يقول الشيخ البكري في الجزء الثاني من فتاويه: "ليس المذهب الإباضي سوى تعاليم الإسلام السامية، وأصوله المستقاة من نبيه الصافي: كتاب الله وسنة رسوله محمد (ص) الصحيحة روتها ثقات عدول ذوو عقول راجحة وبصائر نيرة وفهوم صحيحة لأسرار الدين ودقائق الشريعة. نشأ بالبصرة (العراق) باض فيها وفرخ في المدينة وطار إلى عمان والمغرب وسانر الجهات"

ينسب الإباضية إلى عبد الله بن أباض التميمي، والحقيقة أن عبد الله بن أباض ليس شيخ المذهب وأسمه، وإنما شيخه وأسمه الإمام أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي العماني (22هـ/93هـ)، وقد كان لعبد الله بن أباض دور هام في مناظرة ومجادلة عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي. وفي ذلك يقول الشيخ السالمي:

لحلفاء الحق منا فاعلموا	فما الإباضيون إلا علما
بذاك غير أننا رضىنا	إن المخالفين قد سمونا
كان محاميا لنا وماض	وأصله أن فتى أباض

ويؤكد الشيخ البكري - رحمه الله - ذلك بقوله: "أما نسبته إلى عبد الله بن أباض التميمي المري، فنسبة تمييز لا غير، وابن أباض هو الساعد الأيمن للإمام جابر لا يصدر عن رأيه. والزعيم البطل القوي العرضة الذي ناضل بسيفه وقلعه عن حمى الإسلام دون أن يخاف في الله لومة لائم، ناضل الخوارج وكاتب عبد الملك بن مروان برسائلته الشهيرة أمرا ناهيا وموضحا لمعالم الدين الحق. وهو الذي قام على رأس جيش إلى مكة لمقاتلة مسلم بن عقبة المري عامل يزيد الذي استباح حمى المدينة حماية لحرم الله" وتعود نشأته - أي المذهب الإباضي - إلى موقعة صفين الشهيرة في الإسلام إذ انقسم المسلمون إلى ثلاثة فرق:

- 1- أتباع معاوية.
 - 2- أتباع الإمام علي.
 - 3- المحكمة أو الحرورية: وقد ولوا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي الذي قتل وعدد كبير من صحبه في معركة النهروان الشهيرة (38هـ).
- والإباضية يرون أنهم بريئون من الخوارج، إذ أن الخوارج عندهم هم: الأزارقة والنجدات والصفورية. وقد فصلت بينهم حادثة القعود عن قتال باقي المسلمين وهناك اختلافات عديدة بينهما. وفي ذلك يقول الشيخ البكري منبها المخطئين من المؤرخين: "وإن لعبت السياسة لعبتها فوق المبحر فعلا ووصفهم بعض قصار النظر من المؤرخين المغرضين أو المخدوعين بما هم براء منه، لأن فكرة الخروج لديهم لم تتعد دائرة تحكيم الحكيم ومقاومة الجورة القاسطين فخروجهم خروج سياسة لا خروج دين، لم يستحلوا دماء المسلمين لمجرد ارتكاب الكبيرة أو لمخالفة في الفكرة أو اعتبارهم مشركين تحرم مناكتهم وموارثهم كما هو شأن الأزارقة وغيرهم من الخوارج".

لقد دخل المذهب الإباضي إلى الجزائر على يد سلمة بن سعد الذي استطاع تكوين بعثة علمية كانت نواة لهذا المذهب. إذ أرسلهم للدراسة في البصرة وكان من بينهم عاصم السدراتي ممثلا عن الجزائر.

بعد هذه الإطالة السريعة لمعرفة دلالة مصطلح "الميزابين" سوف نعود للإجابة على السؤال الذي طرحناه. إن محاولة الإجابة على الإشكال المطروح تعتمد على ثلاثة فروض (افتراضات) كتفسير المظاهرة محل الدراسة وهي كالتالي:

1 - خصوصية المذهب الإباضي.

2 - السيرورة التاريخية.

3 - التقنيات والآليات التي تبنّاها المجتمع الميزابي.

1- خصوصية المذهب الإباضي:

إن المجتمع الميزابي مجتمع إسلامي، يستمد تعاليمه ومبادئه من الفكر الإسلامي بفهم إباضي. فإن لخصوصية الفكر الاقتصادي الإسلامي أثر كبير في إحداث هذه الظاهرة. ولا شك أن المجتمع الميزابي من بين أكثر تشكيلات المجتمع الجزائري التزاما ومحافظة على تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، إذ تتجلى تعاليمه في كل سلوكياته الحياتية، اليومية.

إضافة إلى فهمه للإسلام وتعاليمه بفهم إباضي له جذوره التاريخية العتيقة فربما كان لهذا التميز بعدا حضاريا في رقيهم الاقتصادي

ففهمهم للإسلام وتعاليمه فهما فعالا جعلهم يتميزون ويتطورون. وإنه مما يؤكد هذا الفرض أن نفس الظاهرة تتواجد بجارتنا الشقيقة تونس، فالتاجر الجربي (الإباضي) يكتسي نفس الأهمية الاقتصادية التي يحتلها التاجر الميزابي بالجزائر. ولو لاحظنا لوجدنا أن وجه التشابه الرئيسي هو كون الاثنين ينتميان إلى المذهب الإباضي. فبما يتميز المذهب الإباضي عن غيره من المذاهب في هذا الشأن؟!

رغم أنني حاولت وضع دراسة مقارنة بين فقه البيوع في المذهب الإباضي وباقي المذاهب الإسلامية الأخرى، إلا أنني سأحاول في هذا البحث تقديم عينات من الفكر التجديدي للشيخ البكري في المجال الفقهي - التجاري إن صح التعبير - على وجه الخصوص، مركزا على أهم ما استخلصته مما له تأثير مباشر في تفسير الظاهرة. وأستسمح سلفا في إغفال العديد من النقاط الهامة وذلك لسببين:

1- محاولة الإيجاز : فلو تعرضت لكل نقطة على حدا لطال الشرح واستفاض وتحول البحث من إداري تجاري (MANAGEMENT COMMERCIAL) إلى بحث فقهي وأولى بي أن أعطي القوس باريها وأهل الفقه أخرى بذلك مني.
2- ارتباط البحث بالشيخ البكري جعلني أركز على عناصر التجديد في الفكر الإباضي من وجهة نظر الشيخ البكري. وللإشارة أنني لم أوف بحث "الأوراق المالية في الإسلام من وجهة نظر الإباضية" وحاولت إيراد بعض ما ذكره الشيخ البكري - رحمه الله - وهو بحث أسأل الله عز وجل أن يوفقني في إتمامه من ثم فإن أهم ما يمكن تقديمه في هذا البحث ما يلي:

على الصعيد العقائدي:

نجد مفهومين خطيرين لهما بعد حضاري عميق في الجانب الاقتصادي بالخصوص هما: الوعد والوعيد، والولاية والبراءة .

الوعد والوعيد:

انبنى على هذه القاعدة العقدية مجرى سلوكي مهم جدا. فالإباضية يعتقدون أن الله صادق في وعده، صادق في وعيده. لا يتراجع عنه أبدا وبذلك فإن الشفاعة (شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم) لا تجوز ولا تجب لأهل الكبائر وأن الناس مخلدون إما في الجنة وإما في النار.

لقد انبنت على هذه القاعدة العقدية أعمال سلوكية هامة فهم يعتقدون بحرمة مال المسلم إلا عن تجارة بتراض من الطرفين. وهم يرون أن أكل مال المسلم من الكبائر التي إن مات عليها الإباضي خلد في نار جهنم. لذلك فقد كانوا حريصين على المال الحلال. والحقيقة أن هذه القاعدة العقدية تحتاج إلى تفصيل كبير لما لها من أهمية بالغة في مجرى سلوكيات المسلم.

الولاية والبراءة:

وهي ثاني ما يميز المذهب الإباضي في الأمور العقدية، ويقسم الإباضية الولاية والبراءة إلى ثلاثة مراتب هي:

- 1- ولاية الجملة وبراءة الجملة.
 - 2- ولاية الحقيقة وبراءة الحقيقة.
 - 3- ولاية الأشخاص وبراءة الأشخاص.
- ولعل المرتبة الثالثة هي ما يميز الإباضية عن غيرهم. إذ أن مرتكب المعاصي والمُجَاهِر بها يتبرأ منه علنا في المساجد ولا تقبل ولايته إلا إذا تاب وأعلن توبته أمام الإمام والمسلمين. والملاحظ أن الشيخ البكري في فتاويه ركز على المرتبة الأولى والأخيرة وذلك للتدليل على شرعية المرتبة الأخيرة. فيقول - رحمه الله - :

"الإباضية يقولون بولاية الجملة وبراءة الجملة كغيرهم، من سائر المذاهب الإسلامية لأنها الأصل في باب الولاية والبراءة ويمتازون عن غيرهم بولاية الأشخاص وبراءة الأشخاص للأدلة التالية:

- 1- قال تعالى: (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) الآية 272/البقرة.
- 2- قوله (ص) فيما رواه أبو داود عن أبي أمامة: (من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان)
- 3- موقف الرسول (ص) من الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، فقد هاجرهم الرسول (ص) وأمر الصحابة وحتى زوجاتهم بهجرانهم حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه. وقصتهم مذكورة في القرآن.

4- قول عمر بن الخطاب (رض): من رأينا فيه خيرا قلنا فيه خيرا وظننا فيه خيرا وتوليناه ومن رأينا فيه شرا وظننا فيه شرا تبرأنا منه.

5- أضف إلى ذلك تحقيق موجب ولاية وبراءة الجملة فيه فكان حقيقا أن يتولى أو يتبرأ منه منفردا. وهو مقتضى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو شعار الأمة الإسلامية والله أعلم.

وقد انبنت عن هذه القاعدة أمور عظيمة، إذ استخدمت في وقت ما كأداة جزاء وعقاب بيد العزابة لفرض سلطتها وإحكام نفوذها على المجتمع الميزابي، والملاحظ أن هذه السلطة روحية أوجدتها عوامل العزلة والانتماء. ولقد استخدمت هذه القاعدة بصفة عملية كبيرة وهامة. وأثبتت نجاعتها لاسيما في نظام الغربية الذي سنتناوله لاحقا.

على الصعيد الفقهي الاقتصادي:

نجد عدة ملاحظات سوف نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر. وللإشارة فإن آراء الشيخ البكري في فقه البيوع وبالخصوص في التعاملات البنكية والأوراق المالية تحتاج إلى بحث مستفيض لذلك أستسمح الإخوة في إغفالها عن هذا البحث، وذلك لدراستها في بحث خاص إن شاء الله.

ربا الفضل:

من أهم الاختلافات التي نلاحظها عدم وجود مصطلح ربا الفضل في القاموس الفقهي الإباضي، فهم يرون أن الربا الحق هو ربا النسئنة وهو حرام لا نقاش فيه ومتعاطيه مراب يجب التبرؤ منه، بل ونجدهم شديدي التمسك بتعاليم الإسلام في هذا الشأن. بيد أن النوع الثاني الذي يسمى في الفقه الإسلامي ربا الفضل لا يستعملونه. وذلك

ما أشار إليه الأستاذ الشيخ محمد بن بابة الشيخ بالحاج في كتابه القيم (أصول الجمع وكليات الوفاق بين المذهبين الإباضي والمالكي) إذ يقول: "يكاد الإباضية يعتبرون الربا مقصورا في ربا النسئنة. وعرفوه بأنه مبادلة مال مخصوص (معين) بالشرع، بمثله مع زيادة مشترطة من جنسه أو غيره على أجل معلوم تتضاعف الزيادة بمقتضاه بحيث كلما امتدت المدة ازدادت الزيادة. وذلك معنى قوله تعالى: (لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة). وحملوا قول النبي (ص) "إنما الربا في النسئنة"، على أنه قصر حقيقي لا إضافي. إذ تمر الساعات والأيام والأشهر والأعوام فيعجز المدين عن تسديد الزيادة الناجمة عن الربا فضلا عن تسديد رأس المال وأصل الدين. أما ربا الفضل الحاضر الناجز - كتبديل قطار تمر جيد رفيع (مثل الدقلة نور) عندنا في شمال إفريقيا بقطار ونصف أو قنطارين من نوع آخر من التمر، ردي أو أقل جودة من دقلة نور - والكمل حاضر ناجز - بدون تأجيل ولا إنساء بحيث لا يحتمل فيه عجز طرف عن تسديد ما يذمته ولا تتضاعف الزيادة بمرور الزمن فهذا ما يعبر عنه بربا الفضل وجمهور الإباضية على إباحته وتجويزه إذ انتفت فيه علة النهي عن الربا وتحريمه".

والملاحظ أن للشيخ البكري - رحمه الله - رأي مخالف تمثل في جوابه عن سؤال (الذهب بالذهب) إذ رد على السائل بقوله: "معنى ذلك أن الشينين من الأجناس الستة: الذهب، الفضة، البر، الشعير، التمر، والملح إذا كانا من جنس واحد وعن اختلاف جودة ورداءة لا يجوز بيع أحدهما بالآخر بتفاضل أو غائب بناجز أو مخلوطا بغيره قبل فصله وتمييزه إلا مثلا بمثل سواء بسواء. وتفاديا من الوقوع في الربا يباع الجنس الرديء بالدرهم ويشترى بالدرهم الجنس الجيد. قال (ص): (بع الجمع واشتر الجنيب) متفق عليه.

أما كيف تصح المبادلة إذا كانت مثلا بمثل سواء بسواء فكان يضطر إنسان إلى تبديل شيء من جنسه أي يكون لديه تمر (تامجهرت) يرغب عنها ولصاحبه تمر (تادالة) وإن كانت دون الأخرى جودة وأراد أن يتبدل تمر بتمر فلا يسوغ لهما إلا مثلا بمثل سواء بسواء مقدارا أو وزنا فمن زاد أو استزاد فقد ارتكب الربا الذي حرمه الله. أما إذا اختلفت الأجناس ولو ربوية فبيعوا كيف شئتم. ولعل السر في حصر الربا في هذه الأجناس الستة لأنها المواد الأصلية في قوام المعيشة العامة لذلك حماها الشارع أن يتلاعب بها".

فهو يرى - رحمه الله - أن تبادل الأشياء الستة المنصوص عليها يجب أن يكون سواء بسواء وزنا أو مقدارا وبذلك فقد خالف الرأي الأول المبيح لها، وهنا يتضح البعد التجديدي للشيخ البكري ومحاولاته التوفيقية مع باقي المذاهب الإسلامية. ولعل لمرونة هذه القاعدة دور مهم في التعاملات لا سيما المقايضة وانتشارها في وقت سابق خاصة في تجارة التمور وتبادلها ومقايضتها.

زكاة الدين:

يرى الإباضية أن الدين مادام مقدورا على استيفائه فهو ملكا للدائن، وبالتالي تجب زكاته عند حلول موسم الزكاة أي بمعنى أن الدائن هو من يدفع نسبة زكاته. ولا يكلف بها المدين على حد قول الشيخ محمد بن بابة الشيخ بالحاج، وفي ذلك بعدين عمليين بالنسبة للمدين فهو مرتبط بأصل الدين فقط وذلك ما سيساعده على تجارته واستغلاله.

و بالتالي فاستثماره كليا ربما يكون أفضل له. أما الدائن فهو انطلاقا من ثقة متبادلة. يعتبر أن ماله محتفظ به وبالتالي فزكاته واجبة ويحتسب أجره عند الله. فلو دفع المدين نسبة الزكاة عوضا عن الدائن فذلك عين الربا، إذ سيرجع الدين كاملا زائدا مقدار نسبة الزكاة التي دفعها. وذلك ما أكدته الشيخ البكري في فتاويه لسائل زكاة الدين حين قال:

"الديون التي تعتبر من رأس المال هي الديون التي له على غيره الحالة الأجل ولم تكن على مفلس أو مینوسا من قبضها كما لا يطرح من رأس ماله إلا ما حل أجله من ديون الناس عليه لكن رأى بعض العلماء (تنظيما لحسابات الغني وضبطا لأمر زكاته) أن يجمع كل ما لديه من الديون فيضيفه إلى رأس ماله ثم يطرح منه مجموع ذلك جميع ما عليه من ديون الناس وسواء كانت الديون في الحاليتين حالة أو موقعة: يطرح ما عليه مما له والباقي هو رأس ماله الحقيقي الذي تجب عليه زكاته".

التجارة بأموال اليتامى:

قد عمدوا إلى حديث رسول الله (ص) حين قال: (تاجروا بأموال اليتامى حتى لا تأكلها الزكاة)، فهم يجمعون رؤوس أموال الوفاة من الأرامل واليتامى في شكل شركات أسهم تعود أرباحها إلى اليتامى والأرامل. وهي من أصول الوفاق مع باقي المذاهب الإسلامية الأخرى.

زكاة حلي المرأة والرجل:

يرى الإباضية بوجوب الزكاة على حلي المرأة والرجل. وقد استفاض الشيخ البكري استفاضة بليغة في تفصيل جواب زكاة الحلي وقال مقالا فصلا في ذلك جاء فيه:

"لا يوجد في علماء الإباضية فيما أعلم، من قال بعدم وجوب الزكاة في الحلي. فإذا ما أفتى بعض المعاصرين بذلك فتقليدا لغيرهم فيما ذهب إليه". وبعد أن استظهر حجج القائلين بعدم وجوب الزكاة في حلي المرأة أورد حجج القائلين بوجوبها وهي كالتالي:

1. ما رواه النسائي أن امرأة من أهل اليمن أتت رسول الله (ص) وبنت لها، في يد ابنتها مسكتان غليظتان من ذهب فقال: أتوديان زكاة هذا. قالت: لا. قال: أيسرك أن يسورك الله عز وجل بهما يوم القيامة سوارين من النار؟ قال: فخلعتهما وألقتهما إلى رسول الله (ص) فقالت: هما لله ورسوله.

2. عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده أن امرأتين أتتا رسول الله (ص) وفي أيديهما سواران من ذهب فقال لهما: أتوديان زكاتهما. قالتا: لا. فقال لهما رسول الله (ص): (أتحبان أن يسوركما الله بسوارين من نار). قالتا: لا. فقال: فأديا زكاتهما.

3. عن عائشة زوج النبي (ص) رضي الله عنها قالت: دخل علي رسول الله (ص) فرأى في يدي فتحات من ورق فقال: ما هذا يا عائشة؟ فقلت: صنعتهن أترين لك يا رسول الله. قال: أتودين زكاتهن؟ قالت: لا أو ما شاء الله. قال: هو حسبك من النار.

4. كانت عائشة رضي الله عنها تقول: أمرني رسول الله (ص) أن أخرج زكاة حلي. وقال: هي جنتك من النار."

وقد كان لهذه القاعدة الفقهية أثر كبير في النماء الاقتصادي للمجتمع الإباضي منذ عهود لاسيما في تمويل بيوت مال المسلمين.

زكاة الخضر والفواكه:

يرى الإباضية أنه لا زكاة على الخضر والفواكه والحشائش والأعشاب والبقول. كالجزر والبصل والثوم والقرع والديا والطماطم والفلفل والنباذجان مثلا وكذا الحبوب الجافة اليابسة كالقطنيات والفول والعدس والجلبانة والفاصولياء والحمص

مثلا. وغيرها مما يزرع ويقتنى. إذ هي ليست من المواد الضرورية للطعام للاقتنيات والادخار كالبر والشعير والتمر والزبيب والذرة والسلت وغيرها كالأرز. إنما هي من مزيينات الطعام لذلك لا تجب الزكاة في ذاتها لعينها إلا إذا بلغت النصاب بعد بيعها ودار عليها الحول. وهي في ذلك شأنها شأن عروض التجارة.

الشركات في الفقه الإباضي:

تنقسم الشركات في الفقه الإباضي إلى: شركة جبر وشركة اختيار. وفي ذلك يقول الشيخ أطفيش (القطب) رحمه الله:

"فتحصل أن الشركة قسمان: شركة اختيار وشركة جبر.

وشركة الاختيار على ثلاثة أقسام: شركة إبدان وشركة وجوه وشركة أموال. وشركة الأموال على ثلاثة أقسام: شركة مفاوضة وشركة عنان وشركة مضاربة" وبيانها كالتالي:

1. شركة الأبدان: وهي اشتراك عاملان فصاعدا فيما يكسبان بأبدانهم صنعة أو حرفة أو عمل فيقسمون ما حصل حسب اتفاقهم إما بالسوية أو حسب قيمة العمل جودة ورياءة وإتقاناً وسرعة أو غيره.

وحكمها الجواز قياساً على المضاربة والمساواة ولما روي أن سعداً وعماراً وعبد الله اشتراكاً يوم بدر فيما يحصلان عليه، فلم يجئ عبد الله وعمار بشيء. وجاء سعد بأسيرين فأشركهم النبي صلى الله عليه وسلم.

2. شركة الوجوه: هي أن يتفق شخصان فأكثر على قيمة ما يحصلان عليه بجاههما. فيشتريان سلعة بجاههما بدين من غير أن يدفعاً ثمناً فيبيعانها ويقسمان الربح حسب اتفاقهما.

وحكمها الجواز إذ لا تشتمل على مانع شرعي ولما فيها من التعاون وضم الجهود.

3. شركة الأموال: وتنقسم بدورها إلى ثلاثة:

بعد أن تناولنا أهم ما يميز المذهب الإباضي في الجانب الاقتصادي التجاري منه خصوصا وأكد على وجود بعض النقاط الهامة التي يجب تصويبها، وكذا لم أذكر نقاط أخرى ليكون بحث فقهي أدعوا أهل الاختصاص لتناوله. ومن ثم فإنه لا بد من ذكر بعض النقاط الهامة الملاحظة لخصوصية المذهب الإباضي:

- تشدد المذهب الإباضي في العقائد ومرونته في المعاملات: أي أن المذهب الإباضي من بين أكثر المذاهب الإسلامية تشددا في المجال العقدي، أما في جانب المعاملات فنجد هامشا للحريات كبيرا ونجد سهولة كبيرة أيضا. ولعل لهذه المرونة من جهة والتشدد الغالب من جهة أخرى، أهمية في أن يمارس الإباضية التجارة بشكل مكثف عملا بقوله (ص) "تسعة أعشار الرزق في التجارة"، وبذاتيتهم رقابة مشددة نابعة من ذلك التشدد العقدي الذي أشرنا إليه. ومن هنا تبرز خصوصية المذهب الإباضي في الجانب التجاري.

3-1 شركة مضاربة: وهي أن يمكن رجل لآخر مالا يستثمره بأي نوع من أنواع الاستثمار على أن يكون الربح بينهما حسبما يتفقان والخسارة من رأس المال فقط وحكمها الجواز.

3-2 شركة العنان: هي أن يشترك شخصان فأكثر في جمع مقدار من مال موزعا عليهم أقساطا معلومة متساوية أو مختلفة ليعملوا فيها معا لتتميته على أن يكون الربح بينهما حسب اتفاقهم على السهام إن اختلفوا أو على التساوي إن تساوا في السهام والعمل. وسميت عنان لاستواء الشركاء في كل ما يمت إليها بصلة من قبض وإبراء وبيع وشراء وأخذ وعطاء وقسمة ربح وتحمل خسارة كاستواء عنان فرسي الرهان.

3-3 شركة المفوضة: وهي أوسع من شركة العنان والوجوه والأبدان. إذ هي تشملها وتشمل المضاربة أيضا وهي أن يفوض كل من الشريكين للآخر كل تصرف مالي وبني من أنواع الشركة. فيبيع ويشترى ويضارب ويوكل ويخاصم ويرتهن، ويسافر بالمال. ويكون الربح بينهما على ما اتفقا، والخسارة بحسب نصيب كل منهما المالي.

4. شركة الجبر: وهي التي تحصل دون فعل الشركاء كالميراث. فإن الشركة تثبت للورثة في المال دون اختيار منهم.

وبذلك يكون تعدادها ستة أنواع.

• ملاحظة :

- لم يتم تناول البنوك والأوراق المالية ليخصص بحث

لاحق لذلك.

- لم يتم تناول كل خصوصيات المذهب الإباضي وذلك

لسعته من جهة ولعدم التخصص من جهة ثانية واكتفينا بذكر عينة من أهم مميزات المذهب الإباضي فقط.

2 - السيرة التاريخية:

شكل الإباضية أول دولة لهم بالمفهوم الحديث في المغرب الأوسط - وهي الدولة الرستمية - وقد لعبت تيهرت (تاهرت) دورا حضاريا رياديا في التعاملات التجارية، ثم بعد سقوط الدولة الرستمية ونزوحهم إلى منطقة وارجلان وسدراتة، لم ينقص من قيمة الدور الذي لعبته وارجلان في تعاملاتها التجارية بالمنطقة شيء، بل كانت محط اهتمام الكل. وأخيرا بعد نزوحهم إلى جبال بني مصعب والتوطن بها لعب الميزابيون دورا هاما في التجارة قديما وحديثا، فالتجارة ليست وليدة الساعة عند الميزابي بل هي مورثات ثقافية وفكرية لدى الإنسان ورجل الأعمال الميزابي، ولا ريب أن لعامل السيرة التاريخية وهذا الزخم الكبير من ذلك التراث من المعارف والتقنيات المكتسبة بحكم العادة والممارسة دورا هاما في تحكمهم في مقاليد هذا النوع من النشاط الاقتصادي وذلك ما سوف نوضحه.

الدولة الرستمية:

لقد فانتني أن أشير إلى أنه من أهم الأمور العقدية عند الإباضية ما يسمى بمسالك الدين أو الإمامة وهي أربع مراتب: إمامة الظهور - الدفاع - الشراة والكتمان.

وتعتبر الدولة الرستمية أول دولة إمامة ظهور عند الإباضية في المغرب الأوسط وهي أعلى مراتب الإمامة وتكون عند تمامها وإعلانها جهرا للملا، وقد تأسست الدولة الرستمية سنة 160هـ/777م على يد الإمام عبد الرحمان بن رستم الفارسي، الذي جاء مع حملة العلم لنشر المذهب الإباضي بالمغرب العربي، والذي كان عاملا على القيروان حين تركها الإمام أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافيري اليمني لملاقة العباسيين الوافدين لتحطيم الدولة الخطابية

التي كانت عاصمتها طرابلس - وهي أول دولة للإباضية بالمغرب العربي - ولما انهزم أبو الخطاب فر عبد الرحمان بن رستم بعد مقتل جنده إلى مدينة تيهرت أو (ناهرت) أين أسس بها دولته، وكان أهم سبب لاختيار عبد الرحمان بن رستم لمدينة تيهرت عاصمة لدولته هو موقعها الإستراتيجي.

فهي مركز تجاري يربط تجارة الشمال بتجارة الجنوب، ولعله سبب مهم جعل الأمير عبد القادر الجزائري يختارها فيما بعد، إضافة إلى أن عبد الرحمان بن رستم كان يحتمي في تيهرت بالقبائل البربرية الإباضية، وبذلك تأسست الدولة الرستمية التي يقول عنها الأستاذ المؤرخ أحمد توفيق المدني في كتابه القيم (كتاب الجزائر): "فقد كانت الدولة الرستمية أول دولة إسلامية بربرية نشأت في هذه الديار ازدهرت ونمت ونالت شهرة عالمية" إلى أن يقول: "وخلاصة القول أنه يحق للجزائر أن ترفع رأسها مفتخرة بهذه الدولة الوطنية التي قلما شاهدت بلاد الإسلام قاطبة مثلها بعد دولة الراشدين".

ويقول الأستاذ يحي بوعزيز في كتابه (الموجز في تاريخ الجزائر): "ولقد كان نظام الحكم في هذه الإمارة شوريا، يطبق أنمتها أحكام القرآن والسنة وسعوا بجهدهم لإصلاح الأوضاع، فانتشرت الثقافة العربية بشكل ملحوظ، كما راجت الأعمال التجارية والفلاحية والعمرانية وغدت مدينة تيهرت التي جددوا بناءها ووسعوا عمرانها ملتقى للقوافل التجارية".

وذلك ما أكده الشيخ البكري رحمه الله حيث يقول وهو المؤرخ المحقق: "حقا إن دولة بني رستم ديمقراطية شورية بتمام معنى الكلمة على غرار دولة الخلفاء الراشدين تأسيسا وسيرة: تحكم بالكتاب والسنة وإجماع الأمة بشهادة التاريخ النزيه ما في ذلك ريب، تفيء ضلالها الوارفة من عاش تحت علمها وأم ساحتها من رعيته ومن قصدها من أقطار مختلفة فاستلذوا طعم الهناء

والرفاهية، وعاشوا في عهدها عيشة راضية، عيشة الروح والجسد وشهدوا لها بذلك. (انظر ما كتبه ابن الصغير المعاصر لهم في تاريخه). ناهيك أنها استطاعت بعدلها وسماحتها أن تصهر البربر في بوتقة الإسلام الحق. فأصبحتهم جند الله الأمين الذي أقر دعائم الإسلام ورفع رايته عالية خفاقة في ربوع المغرب الكبير...".

كانت التجارة من أهم النشاطات الاقتصادية في الدولة الرستمية ولعل الاستقرار السياسي والأمان على النفس والمال وحسن سيرة الحاكم، من أهم الدوافع التي جعلت التجار يؤمنونها فعمرت أسواقها وكبرت وتحولت بعض تلك الأسواق إلى مدن لكثرة التعامل فيها ولاستقطابها للكثير من الناس والتجار إذ كانت تعقد بشكل مستمر ومتواصل كما يذكر الدكتور بحاز إبراهيم. حتى أن بعضهم ابتنى سوقا خاصا به ولم تقتصر ممارسة التجارة على العوام فقط بل حتى المثقفين والمكفوفين مارسوها وذلك راجع إلى الأرباح التي تدرها التجارة لوفرة البضائع وكثرة الإنتاج. ويذكر الأستاذ محمد علي دبور: "أن أسواق تيهرت كانت تعرف الاختصاص في البضائع. فهناك سوق النحاس وسوق الأسلحة وسوق الصاغة وسوق القماش وغيرها..". وهي من أهم النقاط التي ورثها الميزابيون عن أسلافهم فنجدهم يعرفون الاختصاص في البضائع وذلك ما أكده الأستاذ محمد المنسي قنديل حيث قال: "كل واحد منها مخصص لنوع معين من النشاط التجاري، درب للقصايين، ودرب للطارين وتجار البهار، ودرب للالبسة وحتى الحلاقون لهم درب خاص..". ولقد ازدهرت التجارة الداخلية للدولة الرستمية خاصة مع البدو. الذين يجلبون بضاعتهم للمقايضة في أسواق تيهرت.

وقبل التحدث عن تنظيم ومراقبة تلك الأسواق والتجارة الداخلية سوف أتكلم عن التجارة الخارجية لأهميتها وسوف أقسمها إلى:

التجارة الخارجية مع الشمال:

أو ما سماها الدكتور بحاز إبراهيم بالتجارة الخارجية مع المغرب والمشرق العربيين. لقد لعبت تيهرت دور حلقة الوسط بين المشرق والمغرب العربي كما لعبت دورا هاما للتجارة نحو الأندلس عن طريق موانئها. ولقد لعبت القوافل الإباضية الوافدة من المشرق دورا هاما في تأسيس الدولة الرستمية كما هو معروف بتمويلها لعبد الرحمان بن رستم. وكذا من الجانب الثقافي بحمل الكتب.. الخ. وحتى لا أفصل في أنواع الصادرات والواردات ولا الطرق والمسالك، سأركز على نقطة أو تقنية خطيرة هي إستراتيجية التفوق التجاري أو ما يمكن تسميته بالأمن الاقتصادي ولتفسير ذلك سنروي هذه المقولة التي أوردها الدكتور بحاز إبراهيم في كتابه (الدولة الرستمية: دراسة في الأوضاع الاقتصادية والفكرية) نقلا عن الأستاذ بروفنصال حيث قال: "ال خليفة الأموي عبد الرحمان الثاني دعم علاقات الصداقة بينه وبين أئمة تيهرت، رغم الاختلاف المذهبي لضمان تمويل رعاياه" بالحبوب. إنها إستراتيجية التبعية الغذائية. وقد تكرر هذا التصرف في حكم الأتراك عندما حاول بعض الوشاة النيل من الميزابيين عند الباي فرد الباي عليهم أن دولته تحت أيديهم نظرا لتحكمهم في مقاليد التجارة ببلادهم.

ولو لاحظنا لوجدنا أن هذه الإستراتيجية هي من موروثات الدولة الرستمية بحيث عمد الميزابيون إلى السيطرة الاقتصادية لضمان الوجود. وهي إستراتيجية هجومية تنجم عن الإغراق للتبعية بحيث يصبح التابع في حاجة ماسة إلى المتبوع. وبذلك ضمنوا وجودهم إن قديما أو حديثا. وهذه الإستراتيجية من أخطر الإستراتيجيات في النظام الدولي الحديث، وقد تنبه لها الرستميون قديما وحتى الميزابيين في عهد الدولة التركية بالجزائر، وهي نظرية الأمن الاقتصادي. والملاحظ كذلك أن الرستميون قد صكوا لأنفسهم

عملة خاصة بهم وهي أكبر دليل على القوة الاقتصادية التي كانوا يحظون بها.

النقطة الثانية الخطيرة: وهي من أوجه التشابه إن بالصدفة أو بالممارسة وهي وجود التجار اليهود. فقد لعب التجار اليهود في الدولة الرستمية دورا هاما. حسب د. إبراهيم بحاز إذ كان لهم درب خاص يسمى بالرهانة كما يذكر ابن الصغير المالكي وكذلك الراذانية وغيرهم...

والملاحظ أن التجار اليهود في وادي ميزاب قد كان لهم دور كبير في التجارة والتعامل مع الميزابيين. ولا شك أن لعامل الاحتكاك المتواصل وكذلك كثرة التعاملات ما أكسب الميزابيين بفطرتهم وحذاقتهم القدرة على أن يأخذوا شيئا كثيرا من التقنيات التي لا تتنافى مع أصول هذا المجتمع الإسلامي ومبادئه من التجار اليهود كالباقية والكياسة والصبر ودمائه الحديث والمعاملة واعتماد مصادر التمويل وطرق التخزين وشبكات التنظيم وغيرها...

التجارة الخارجية العابرة للصحراء:

لقد لعبت الصحراء الكبرى والتي تشكل الجزء الأكبر من الدولة الرستمية خاصة في أقصى شرق الدولة دورا هاما في التاريخ الاقتصادي لا سيما التجاري منه، والتي أطلق عليها التجارة العابرة للصحراء، إذ كانت تنطلق من تيهرت وبعض المراكز التجارية الأخرى نحو بلاد السودان الغربي إذ أنه حسب د. بحاز إبراهيم: "كان لهذه الطرق أربع مسالك رئيسية. وكانت تدر أرباحا كبيرة على الرستميين، إذ كان أهم ما يجلبونه هو الذهب والرقيق. ونظرا لصعوبة هذه التجارة فسوف نرى كيف كان تخطيط الرستميين ومن ثم كيف استفاد الميزابيون من هذه التجربة.

كان للتجارة العابرة للصحراء مصاعب جمّة تتلخص فيما يلي:

- صعوبة المسالك عبر الصحراء

- قطاع الطرق
- الحر الشديد والبرد الشديد
- قلة المياه

ولكن الرستميون استطاعوا أخذ احتياطات هامة من بينها:

الدبلوماسية:

يترأى جليا لنا أهمية هذه التجارة بالنسبة للدولة الرسمية علما أنها كانت من أهم موارد الرستميين، وذلك مما دعى الإمام عبد الرحمان بن رستم إلى تزويج ابنته أروى لمدرار بن السمح أحد أمراء بني مدرار الصفرية لتأمين الطرق التي كانت تربط بين تيهرت وسجلماسة وأودغيت وغانا. رغم اختلافه المذهبي ولكن لأهمية الدور الذي لعبته سجلماسة في هذه الطريق جعل عبد الرحمان بن رستم يقدم على مصاهرتهم كحل دبلوماسي لتأمين الطريق وهو أحد أشكال التخطيط الإستراتيجي لضمان سير هذه التجارة.

الاحتياط الأمني:

وقد أخذ شكلين:

- **الشكل الأول: تمثل في الاستعداد العسكري:** إذ زودت القوافل بالفرسان، والسلاح حتى لا يتعرض لها قطاع الطرق. وإن صادف وأن تعرضوا لها فسيجدون المقاومة اللازمة. وبذلك يضمنون سلامتهم وسلامة قوافلهم التجارية.

- **الشكل الثاني: هو جانب التفوق العددي:** إذ كانت القوافل العابرة للصحراء تتميز بكثرة جمالها - إذ يمكن أن تصل إلى اثنتي عشر ألف راحلة - وهو ما يتماشى مع نشاط التجارة العابرة للصحراء. فقد كانت من أهم الصادرات إلى السودان من جهة ومن جهة أخرى كانت محملة بالبضاعة كالتنمر والجلود وخاصة الملح الذي يعتبر أهم بضاعة وبالمقابل كانوا يجلبون الذهب والرقيق.

إن تركيزي على التجارة العابرة للصحراء هو لإسقاط هام سياستي حين أتكلم عن نظام الغربة الذي تبناه المجتمع الميزابي. فنرى أن هجر الديار بحثا عن التجارة وكأنه أضحي تقليدا عند الميزابيين، فقد أثبتوا قدرتهم على تحمل المشاق بحثا عن الأرزاق رغم صعوبتها فامتطاء الصعاب قد تربى عليه بنو ميزاب.

المؤسسات المالية: بيوت المال ودار الزكاة:

قبل توضيح هذه النقطة، سأعرف بهذين المؤسستين استنادا إلى ما كتبه د. بحاز إبراهيم في كتابه الدولة الرسمية: دراسة في الأوضاع الاقتصادية والفكرية.

دار الزكاة: موردها الأساسي هو الزكاة، فازدهار التجارة والزراعة والذهب المجلوب من السودان أمور جعلت كمية الزكاة كبيرة. إضافة إلى أنه حتى النساء قد كن من المساهمات بشكل كبير في هذه الدار بما فرض عليهن من زكاة حليهن حسب خصوصية المذهب الإباضي. أما نفقاتها أي نفقات هذه الدار فقد كانت للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل حسب نص الآية الكريمة.

بيت المال: هي مؤسسة مالية ثانية تتولى جبي الخزينة وخراج الأرضين إضافة إلى الضرائب والرسوم التي تؤخذ من أرباب التجارات والحرف والقوافل التجارية وغيرها وتتفق في دفع أجور موظفي الدولة وكذلك تمويل المصالح العامة للناس كبناء المساجد والطرق والأسواق وحتى المستشفيات وبيوت الضيافة وقوافل طلبة العلم... الخ.

ترى أي المصادفة العجيبة، أم هو ذلك الموروث الثقافي أن نجد هذا النظام يندمج إلى الآن؟ بصورة غير رسمية لكنه موجود عند الميزابيين، فالزكاة توزع على المحتاجين والفقراء والمنصوص عليهم

في الآية الكريمة رغم عدم وجود دار رسمية للزكاة إلا العزابة أو العشيرة في الغالب. ولكن بيت المال بالموازاة موجودة أيضا في نظام الجولة، فهم يقومون بجمع الأموال من التجار وأرباب الأعمال لتسيير المنشآت الدينية الإباضية.

إنه التأكيد الصارخ على أن هنالك امتداد فطري لنفس الأفكار وعند الإباضية وتطبيق ضمنى لتلك الآليات المتوارثة منذ قرون.

الحسبة (النظام الرقابي):

الحسبة حسب تعريف العلامة ابن خلدون "هي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. يوظف لها القائم بأمر المسلمين من يراه أهلا لها. فيحمل الناس على المصالح العامة في المدينة، مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحماليين من الإكثار في الحمل والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة وردع من يقوم بالغش والتدليس في المعاييش وفي المكاييل والموازين وغيرها".

لقد عرف الرستميون هذا النظام الرقابي، فقد جعل الأستاذ عثمان الكعاك الإمام أبي اليقظان بن أفلح (260هـ/281هـ) أول محتسب، وأيده الأستاذ لقيال موسى. لكن دبحاز إبراهيم استنادا إلى ابن الصغير المالكي يرى أنها عرفت منذ وقت مبكر لعهد الإمام أبي اليقظان. وقد قام الإمام أبو اليقظان بهذه المهمة أحسن قيام إذ أعتبر أول محتسب تذكر المصادر اسمه في الدولة الرستمية، وهو وقتها ليس إماما وقد جرت العادة على أن يتولى وظيفة المحتسب عند الرستميين غير الإمام. ويذكر ابن الصغير مهامهم فيقول: "...قوما من نفوسة يمشون في الأسواق، فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر قالوا فإن رأوا قصاصا ينفخ في شاة عاقبه، وإن رأوا دابة حمل

عليها فوق طاقتها أنزلوا حملها وأمروا صاحبها بالتخفيف عنها، وإن رأوا قذرا في الطريق أمروا من حول الموضوع أن يكنسه". وقد استمر تطبيق نظام الحسبة فيما بعد وتوارثه الميزابيون.

وارجلان وسدراتة:

كان لسقوط الدولة الرستمية (296هـ/909م) عدة دوافع داخلية وخارجية وعندما استطاع أبو عبد الله الشيعي دخول عاصمتها ففر الإمام يعقوب بن أفلح بن عبد الوهاب مع أهله وجمع كبير، متجهين إلى وارجلان وسدراتة.

ولقد استقبل يعقوب بن أفلح استقبالا حارا مع من قدم معه. من قبل الشيخ أبي صالح جنون بن يمران، متولي أمور وارجلان فلما دخلها الإمام يعقوب أكرمه أهلها وأحسنوا إليه وطلبوا منه أن يتولى أمرهم بغية إحياء الدولة المندثرة فرفض وقال قولته المشهورة: "لا يستتر الجمل بالغنم". وبذلك فضل إمامة الكتمان وهي ثاني أنواع الإمامة بعد الظهور، والتي دامت لحد الساعة. ويرجع الشيخ البكري - رحمه الله - أسباب هجرة الإباضية إلى الصحراء بأنها كانت اضطرارية واختيارية معا، فيقول: "أما كون هذه الهجرة اضطرارية أو اختيارية فعندي أنها اضطرارية واختيارية معا: اضطرارية باعتبار أنهم أصبحوا بحيث لا يستطيعون مجابهة أعدائهم الذين أخرجوهم من ديارهم بقوة فاضطروهم إلى النزوح والانتجاع إلى ناحية نانية عن العمران يرغب عنها الطامعون طبعاً، واختيارية باعتبار أنهم لما أجلوا من ديارهم اختاروا من بين النواحي الكثيرة التي تمكنهم من الهجرة إليها، ناحية الصحراء القاحلة لاعتبارات معقولة أهمها أنها تحميهم بقحولتها وبعدها عن الطامعين المنافسين الذين يتحرون مواقع الخصب والرخاء وتمكنهم من جهة

أخرى المحافظة فيها على أصالتهم وعقيدتهم التي هي أعز ما يملكون وعليه فهي اضطرارية أولا اختيارية آخرا".

ولقد عاش الإباضية في وارجلان وسدراته حياة يصفها لنا الشيخ البكري - رحمه الله - في إحدى مراسلاته مع الشيخ علي يحي معمر فيقول: "كانوا يعيشون عيشة الروح لا عيشة الجسم، حياة التقشف، لا يحفلون بالقشور، ولا يميلون إلى الترف والنعيم، وأنى لهم. وقد صرفوا كامل عنايتهم إلى الاضطلاع بدين الحق، إلى تصحيح العقيدة، إلى نشر تعاليم الإسلام، بين الجماهير الساذجة، وحملهم عليها قولاً وعملاً، فانساقوا في هذا السبيل، سبيل الآخرة إثاراً للأجلة عن العاجلة وساعدهم على ذلك تحررهم من مهام الملك التي تستنزف جهودهم وأوقاتهم، وتحملهم على اعتناق الحياة المادية طوعاً أو كرهاً.

أجل إنهم وإن لم يعرضوا عن الحياة المادية تماماً إلا أنهم يحيون حياة هزيلة لا تعدوا - على عمومها - تربية المواشي وفلاحة الحبوب، وغرس النخيل والأشجار سيما الزياتين. إلى شيء من تجارة عمادها المقايضة، وإذا قدر لبعض الأشياء - مثلاً - أن يكون ذا ثروة فإنه يقنيها في كفالة الطلبة الذين ينقطعون لخدمة العلم وإقامة شعائر الدين والوعظ والإرشاد احتساباً وامتنالاً لما يامر به الدين، ويدعوا إليه القرآن الكريم. الأمر الذي حفظ للدين تعاليمه وللعلم حقانته. ولحسن السلوك منهاجه، فكثرت جيوش العلماء وكثر تنقلهم من ناحية إلى أخرى تثبيتاً للأقدام، وإصلاحاً لذات البين، وتصحيحاً للأخطاء، وقياماً بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. على صعوبة المواصلات وقلة الوسائل، وخوف السابلية وبعد المسافات. ولذلك حافظوا على المذهب الإباضي بين تلك الزعازع والأعاصير العاصفة في مختلف نواحيه، واستطاعوا أن ينزلوا خصومهم الذين يحاولون جهدهم تحويلهم عن عقيدتهم

وزعزعتهم عن مراكزهم وحملهم طوعاً أو كرهاً على الذوبان في بوتقتهم.

والحق أنهم أوتوا صبراً عجبياً، وقدرة فائقة على تحمل شظف العيش ومجابهة خشونة الحياة، وترك حظوظ النفس بارتضاء ربهم واستعداداً لتحمل الأمانة التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفق منها وحملها الإنسان. يقصرون أول حياتهم على التعلم حتى إذا نبغوا تصدوا للتعليم وعقد الرحلات للدعوة إلى الله وتفقد أحوال المسلمين، ورأب صدعهم وجمع كلمتهم، وتصنيف الكتب في مختلف العلوم لا سيما فقه الشريعة، وتوجيه قافلة الخلق في طريق الخلق، والانتقال إلى العكوف على عبادة الله في الخلوات طالبيين بذلك رضى الله عنهم ونعيمه المقيم، مسترخسين في سبيل ذلك كل عزيز ونفيس فترى الأشياخ المياسير يقومون بتموين طلبتهم وكفالتهم حتى تفنى ثروتهم. أجل هناك بعض النواحي تمتاز عن سائرهما بتعاطي التجارة وعقد الرحلات إلى البلاد النائية طلباً للرزق كتجار وارجلان الذين يسافرون إلى السودان وبلاد غانة. قال الشريف الإدريسي عن مدينة وارجلان "ورقلة" هي مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة - ونقارة - وهكارة فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم عملة مسكوكة باسم بلادهم وهم وهبية إباضية والذي جعل جمهور الأصحاب يفضلون خشونة العيش والكفاف أنهم لا يستطيعون التفرغ للاكتساب مقلقين في أوطانهم، خائفين في أسفارهم مخاطرين عرضة للنهب والسلب والقتل من جيرانهم بل أمعن الجورة في تجريدهم مما بين أيديهم، وتشريدتهم في البلاد والנקارية بهم".

يتضح من كلام الشيخ رحمه الله أن وارجلان في هذه الفترة عاصمة من عواصم الصحراء الكبرى. وقد حظيت رفقة سدراته

بشهرة كبيرة حيث أنها كانت مركزا هاما من المراكز التجارية. ومنطلقا للقوافل التجارية القادمة من الشمال نحو السودان.

وقد لعبت إبان الدولة الرستمية دورا أساسيا باعتبارها قاعدة للدولة الرستمية في الصحراء، واشتهر أهلها بقيادة القوافل إلى بلاد السودان أو ما يسمى بالتجارة العابرة للصحراء. وقد كانت وارجلان تحتكر تجارة المغرب الأوسط مع بلاد السودان الغربي.

لقد ارتبطت وارجلان بأكبر الحواضر سواء في إفريقيا أو المغرب الأوسط وقد حافظت على نشاطها التجاري كوسيط رئيسي بين مدن وبلاد المغرب وبلاد السودان. كذلك بعد سقوط الدولة الرستمية إذ تحول النشاط التجاري إليها بعد رحيل الإباضية إليها. وقد عد الأستاذ مسعود مزهودي سبعة عشر (17) طريقا رئيسيا يربط الشمال بوارجلان باعتبارها منفذا هاما لهذه البلاد. ومن هنا يتجلى الموقع الإستراتيجي لمدينتي وارجلان وسدراتة. فهي لا تقل أهمية عن مدينة تيهرت من الناحية الاقتصادية ولعله أهم الدوافع التي حملت الإمام يعقوب بن أفلح إلى اللجوء إليها.

ولقد لعبت وارجلان نفس الدور الذي لعبته سابقا في ظل الدولة الرستمية، في التجارة العابرة للصحراء. وحافظت على نفس الأهمية بل زادت، وقد كان لأهل وارجلان دور كبير في تجارة الذهب والرقيق.

ويلاحظ أن لإباضية وارجلان نشاط ملحوظ في وادي ميزاب خاصة وأنهم كانوا يمرّون عليه في طريقهم إلى تيهرت، وأنشاء عودتهم يحضرون: الفواكه والخضر والقمح والشعير المتوفر في تيهرت. كما ساهم سكان وادي ميزاب في الحركة التجارية، فكان التجار يتبادلون في مدينة غرداية التي كانت مركزا رئيسيا للتبادل التجاري في شمال الصحراء، مسحوق الذهب وريش النعام والعيبد والسلع المجلوبة من السودان بالخضر والفواكه المجلوبة من الشمال.

وكانت المعاملات التجارية تتم بالمقايضة. حسب الأستاذ مسعود مزهودي. والشئ اللافت هو الدور الذي لعبه التجار الإباضية في نقل الإسلام إلى بلاد السودان، ولعل أهم حدث يسجل في هذه المرحلة هو تأسيس حلقة العزابة التي تولت تسيير شؤون البلاد والعباد على يد أبي عبد الله محمد بن بكر النفوسي الفرسطاني سنة 409هـ/1018م.

وقد تولت هذه الهيئة فيما بعد الإشراف على الجوانب الاقتصادية للبلاد بما فيها الحسبة وتنظيم السوق التي توارثها الميزابيون.

انتقال الإباضية إلى وادي ميزاب:

تعود فترة انتقال الإباضية من وارجلان وسدراتة إلى وادي ميزاب، إلى بداية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر ميلادي). فرغم صعوبتها ووعورة مسالكها. وكذا عدم صلاحيتها للزراعة إلا أن الإباضية اختاروها كملاجا لهم بعد عمليات التشريد التي تعرضوا لها طول حياتهم ولعل طبيعتها تلك هي التي جعلتهم يفضلونها.

ويفسر الشيخ البكري - رحمه الله - الأسباب التي جعلتهم ينحسرون في وادي ميزاب بقوله: "وإذا بحثنا عن الأسباب التي أثرت على الإباضية فصيرت كثرتهم إلى قلة وجعلتهم ينحسرون في نقطتين اثنتين ميزاب ووارجلان بعد أن كانوا في أكثر من عشرة مواطن لا يقل الواحد منها عن الباقيين قوة وكثرة وجدنا لذلك أسبابا كثيرة منها:

1- الظاهرة العامة المتأصلة في نفوس البربر الذين هم أغلبية سكان الجزائر في مختلف أدوارها، ومعلوم أن البربر متمسكون أشد التمسك بمبادئهم إذا كانت هذه المبادئ تتصل

بالعقيدة، فهم يحاربون من أجلها ويموتون في سبيلها (يتصرف الشيخ علي يحيى معمر).

2- حياة الفوضى التي عمت القارة وطبعتها بطابعها، وضعف السلطة المركزية أن تسيطر على الحالة فتوقف كلا عند حده وتحمل الرعايا ولو بالقهر على التزام النظام واحترام الحريات والحرمان.

3- جور الحكام وانتهاجهم سياسة التفتير والإتخان في البربر عملا بوضعية أسلافهم وعلى رأسهم الأصحاب الذين ينتمي معظمهم إلى قبيلة زناتة العظيمة المعادية للصنهاجيين وخلفائهم ومن نهج منهجهم السياسي، يدلك لذلك ما حكاه الشيخ الشماخي عن بعض حفدة الشيخ أبي باديس أبخت بن باديس اليشكني أحد شيوخ الإباضية الأغنياء الذي كان يسكن في بونة فقد ربي فرسين بأمر جده فأحسن تربيتهما وتاديبهما ثم أهدهما إلى المعز بن باديس الصنهاجي مداراة فقبلهما منه وفرح به وبهما وأكرمه. فكره وزراؤه ذلك فطعنوا فيه وأفسدوا قلب المعز عليه. قالوا: اقتله فإنه من الإباضية وقد أمكنك ورأيت عظم ما آتاك به وكيف ما خلف وراءه لنلا يخالف عليك. (وفي هذا التعليل كل الدلالة على روح السياسة وقتئذ). فقال لهم: كيف الحيلة إلى قتله وقد عرف القاصي والداني قبولنا لهديته.

قالوا: تأمره أن يلعب أسد السخط - وهو الأسد الضاري العادي - بفرسه فيهلكه. قال الحفيد "فأرسل إلي المعز فقال: تلاعب بمهرك أسد السخط - وأنتم زناتة تذكر عنكم الفروسية - فقلت: لبيك زهوا وتبها. فأمر بي أن أدخل خان السباع فركبت مهري الأول وأطلق علي سبع ضار عاد، وجلت مع السبع في الدار مليا حتى إذا ارتاضه المهر قربته إليه فهمزته بالأشابير فضربه على أم رأسه

فوقع كالنخلة السحوق، ونجوت والحمد لله رب العالمين". أنظر تفاصيل القصة في سير الشماخي ص: 383.

4- الصراع الذي لا يكاد يفتر بينهم وبين الحكام الجورة وعدم الاستكانة لهم. ومما يذكر في هذا الباب أن أحد المشايخ كان لا يلتفت إلى جبار احتقارا ولا يصافح الجبابرة البتة فلما قيل له في ذلك أجاب "إن الله يسأل اليد لم تصافح اليد" وكان من مبادئهم عدم الوفاة على الجورة، وقد أخرجوا فعلا عبد الله بن جابر لوفادته إلى أمراء قابس وهاجروه. ويرون في هذا خيرا "إن رأيتم العالم يمشي إلى باب السلطان فاتهموه على أمر دينكم". وقد نظم الشاعر هذا المعنى فقال:

قل للأمير مقالة لا تركزن إلى فقيه
إن الفقيه إذا أتى أبوابكم لا خير فيه

5- تأصل العداوة ضد نزعة الأصحاب التحررية التي ينعنونها بالخارجية. "وإن كانت من لباب الإسلام" خوف الجورة على سلطانهم منهم وتآليب الغوغاء عليهم، وتخضيدا لشوكتهم، وتوهينا لقوتهم، وإشغالهم بالدفاع عن أنفسهم لنلا يتفرغوا لمهاجمتهم.

6- وقوفهم دائما موقف الدفاع إزاء أعدائهم، ولا يقفون موقف الهجوم أصلا وأنت خير أن المدافع دائما إلى ضعف، وما غزي قوم في عقر دارهم غلا ذلوا.

7- وقوفهم عند حدود الشرع في معاملة خصومهم ولا جاروا عليهم عملا بقول عمر بن الخطاب: "ما عاقبت من عص الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه".

تأخذ ولا تعطي، فكانت قحولتها كشوك القنفذ تقصي الأيدي منه، انحازوا إليها محافظة على عقيدتهم وأخلاقهم، وضنا بوحدهم أن تدوب وسط خضم المجتمع الكبير الذي تسوده الفوضى وتطاحن القوى، وعدم التقدير بمبادئ الدين في تصرفاته".

قبل البدء في تحليل الموضوع علينا أولاً أن نسأل: هل عرف المصعبيون التجارة قبل مجيء الإباضية؟

كانت منطقة وادي ميزاب منذ القدم مستقرا لجماعات من المعتزلة الواسلية وقد كانوا ينتقلون من الجنوب إلى الشمال في فصل الربيع ثم يعودون مع بداية فصل الشتاء حسيما ذكر الأستاذ: مسعود مزهودي. وهذا دليل على أن المصعبيين الأوائل من المعتزلة الواسلية كانوا يمارسون التجارة. إلا أننا لا نجد أي معلومات عن تجارتهم ولا تنظيمها ولا تسييرها. ولكن الأكيد أنه كانت لهم تعاملات تجارية مما شكل تجمعا كبيرا لهم آثار مخاوف أبو زكرياء الذي أشار على الإمام الرستمي عبد الوهاب في أجواز تبهرت بقوله: "تكاثفت كلمة الواسلية واجتمعوا من كل نقب وجاؤوا من كل أوب".

لقد لعب الإمام أبو عبد الله محمد بن بكر الدور اللازم لدعوة سكان المنطقة إلى المذهب الإباضي فالتف حوله الكثيرون. وبالتالي انتقلت إلى الوادي جموع الإباضية الفارة من وارجلان وسدراتة بعد الغزو الهلالي للمنطقة واستوطنوا بداية بلدة العطف سنة (402هـ/1011م) تلتها مليكة (408هـ) فغرداية العاصمة الحالية لبني ميزاب (442هـ/1053م) وهكذا توالى مدن ميزاب الإباضية. والملاحظ أن منطقة وادي ميزاب صعبة التضاريس مما دفع الميزابيين إلى إحتراف التجارة كعادة أسلافهم مستندين إلى ترسانة تاريخية من المعارف والتقنيات سنحاول إيضاحها فيما يلي:

على الصعيد الإداري:

- 8- تحكم النزعات المذهبية التي احتضنتها بعض تلك الدول وشجعته لأنها لا تكون في نظرها خطرا على نفوذها، ورائته الخشخاش الذي يكرهه المذهب ويظل في أنفه ما عاش.
 - 9- عدم استنادهم إلى دولة عتيبة تحمي ظهورهم وتشد أزرها وتجمع كلمتهم بل ظلوا أوزاعا مبددين هنا وهناك.
 - 10- ابتلاؤهم ببعض زخوف وهجمات ذوي المطاعم من الملوك والأمراء الذين ينزعون إلى الاستبداد والسيطرة كالميورقي الذي اضطلم وارجلان "يعني ناحيتها وعلى الخص سدراتة" سنة 626هـ وهدم سورها وتركها قاعا صفصفا كان لم تغن بالأمس.
 - 11- ما ينزل بهم من التخريب والترويع والتشريد أثناء انتقال السلطة من دولة إلى دولة دون تسليم المهاجم ملكه واستيلاء المهاجم عليه دماء تسيل وأرواح تزهق، وعمران يخرب ويقوض، وأموال تفنى وتبتد، وحرمان تنتهك إلى غير ذلك.
 - 12- مطاردة الجورة إياهم وتغريمهم بغرامات لا قبل لهم بأدائها تعجيزا لهم، وتذرا إلى قتلهم، أنظر حكاية أبي الخير الزواغي مع أحد أعوان ابن باديس: السير ص: 336.
 - 13- وإذا أضفت إلى كل ذلك نزوعهم إلى حياة الروح والعكوف في الخلوات وعزوفهم عن الجانب المادي الذي يجزلهم قوة يستطيعون بها رد عاديات الأيام لم تستغرب من النتيجة الحتمية.
- وهكذا تضافرت هذه الأسباب عليهم، واستمرت تضعفهم شيئا فشيئا حتى تركتهم بالقلة التي نشاهدها عليها اليوم، وجعلتهم ينحسرون في ميزاب وارجلان. ولكن ما السر في انحصارهم في تلك المنطقة دون سواها وبقائهم فيها إلى اليوم: السر أن منطقة ميزاب وارجلان منطقة بعيدة عن أوساط الاحتكاك ولم تكن من المناطق الخصبة التي يكثر فيها النزاع، بل هي في صحراء قاحلة

فقد تواصلت إمامة الكتمان التي أعلنت في وارجلان وسدراتة. واعتبرت العزابة هي المؤسسة العليا لتسيير مصالح البلاد. كما أحدثوا بعد ذلك هيئات أخرى شكلت التنظيم الحالي ك: مجلس عمي سعيد، ومجلس با عبد الرحمان الكرتي، وأبي مهدي عيسى بن إسماعيل. وواصلوا في التنظيم الاجتماعي فتحوّلت العزابة من حلقة علم إلى مجلس إداري ينظم شؤون البلاد والعباد وهو صاحب الحل والعقد كما سوف نرى.

على الصعيد التجاري:

لقد عرف الميزابيون أنهم في وسط يجب عليهم فيه اتخاذ احتياطات أمنية بالغة لا سيما لوجود كثرة المعادي وانتشار المخالفين من جهة وانحصار الإباضية في وادي ميزاب ووارجلان من جهة أخرى. وقد استغلوا معرفتهم بالتجارة بعد انطلاقهم في نظام الغربية، فنجحوا أنهم تحكموا في مقاليد التجارة إبان عهد الدولة التركية وأصبحت بذلك وسيلة ضغط وتهديد للباي بالانسحاب من الجانب التجاري وهو ما شكل تهديدا للأمن الاقتصادي للدولة التركية المرتبطة ارتباطا وثيقا بالميزابيين. وقد سبق وأن رأينا في الدولة الرسمية أن الرستميين قاموا بمعاهدات مع عبد الرحمان الثاني الأموي لضمان تمويل دولته بالحبوب وهو تشابه وثيق بين الإستراتيجيتين.

الدبلوماسية:

عرف الميزابيون عدة معاهدات لحماية تجارتهم ابتداء من العهد العثماني. وحتى إبان الاحتلال الفرنسي وذلك كما يلي:

معاهدات العهد العثماني:

تميزت علاقة الميزابيين مع الدولة العثمانية بإبرام معاهدات حماية، دون سيطرة واستيلاء العثمانيين على وادي ميزاب، باعتباره منطقة خاصة تحت الوصاية ولها الحرية كنظام مستقل. ونظرا لكثرة وانتشار التعاملات التجارية للميزابيين في العهد العثماني في الجزائر وذلك بنظام الغربية الذي تعود بداياته إلى تلك الفترة تميزت هذه العلاقة بإبرام عدة معاهدات أهمها:

معاهدة سنة 1510م:

تمت هذه المعاهدة بين الدولة العثمانية ووفد من الميزابيين وذلك لحمايتهم وحماية قوافل تجارتهم، وتأمين المواصلات والسماح لهم بمزاولة أعمالهم الحرة في كل المدن التابعة للدولة العثمانية وسميت بمعاهدة الحماية. مقابل خراج سنوي يقدر بما يساوي 45000 فرنك فرنسي، و12 عيد و12 أمة. وأن لا يساعدوا أو يأووا أي قادم على الدولة التركية أو مناهض لها وكذلك شروط أخرى.

والملاحظ أنه كان الهدف الإستراتيجي من وراء هذه المعاهدة هو ضمان عدم استيلاء الأتراك على وادي ميزاب. وكذا تأمين قوافل التجارة من أعداء الميزابيين المنتشرين بكثرة وقد كانت هذه المعاهدة بمثابة معاهدة "ولاء ودفاع" مما جعلهم يشاركون مع الأتراك في معركة كدية الصابون سنة 1518م ضد الإسبان في معركة حسين داي. ولقد ساعدت هذه المعاهدة الميزابيين على الانتشار الكثيف في مدن الشمال والتحكم في مقاليد التجارة والنشاط الاقتصادي مما جعلهم قطبا وقوة اقتصادية هامة في البلاد بل وجعلهم القوة الاقتصادية العظمى (خاصة التجارية) ورغم ذلك فإن العثمانيين لم يؤديوا كامل التزاماتهم للميزابيين من حيث تأمين القوافل والتجارة مما عرض الكثير من قوافلهم للنهب والسطو من قبل أعدائهم وقطاع الطرق مما جعلهم يلجئون إلى التسلح لحماية قوافلهم واتخاذ احتياطاتهم كاستئجار بعض الحراس وغيرها

وفي ذلك يقول الشيخ البكري - رحمه الله - واصفا علاقة بني ميزاب بالدولة التركية:

"كان الإباضية في ميزاب إلى عهد الدولة التركية منعزلين في وطنهم لا يكادون يتصلون بخارج محيطهم اللهم إلا ما كان من زيارة بعض شيوخ دعوتهم وما على ذلك من انتقالات جزئية مستقلين فيه استقلالاً تاماً. حتى إذا استقرت قدم الدولة التركية بالجزائر وأخذ نطاق استقلالها يتسع، وجدوا أنفسهم بين شذقي ضيغم ووضعهم على خطر إن لم يحتاطوا لمستقبلهم، وسارعوا إلى المفاهمة مع هذه القوة الزاحفة مفاهمة يحفظون معها ذاتيتهم واستقلالهم، وإلا عصفت بهم رياح الحوادث ويأما أكثرها ولا سيما وهم أقلية.

وفعلا اتصلوا بالدولة التركية، وقرروا تبعيتهم إليها تبعية اسمية فقط أو بعبارة أوضح. دخلوا تحت حمايتها مقابل خراج سنوي يدفعونه لها، ولهم مقابل ذلك حق الاتجار والاكتساب في مدنها وحماية أشخاصهم وأموالهم في أسفارها عبر بلادها، فهل أمنتهم في أسفارهم وحمتهم من قطاع الطرق حقاً؟

كلا فالذي يقصه علينا التاريخ أن الدولة التركية لم تعر إلى هذه الناحية أدنى التفاتة، بل ألقت الحبل على الغارب. وتركتهم عرضة للنهب والسطو والترويع فلا يخرجون من بلادهم أو إليها إلا قوافل مسلحين استعداداً للطوارئ وتحت حماية بعض أبطال ذلك الزمن منهم الذين يستأجرونهم لذلك مخافة أن يذهبوا هم وأولادهم ضحية، فكم من جماعة سافرت إلى وطنها بعد أن أمضت سنين في الجمع والاكتساب تخرج عليهم جماعة مجرمة من قطاع الطرق فتجردهم من كل ما ملكت أيديهم. وتركهم عراة صفر اليدين".

مراسلات إبراهيم بيحمان:

الحاج إبراهيم بيحمان هو أحد تلاميذ الشيخ عبد العزيز الثميني مؤلف كتاب النيل الشهير. وقد لعب دور عبد الله بن أباض مع عبد الملك بن مروان. من خلال مراسلاته الشهيرة، وتعد مراسلاته كوثائق هامة للتاريخ لواقع العلاقات التركية الميزابية. والشيخ إبراهيم بيحمان هو الذي فاض باي الجزائر حسن الدولاتي، في شأن خضوعهم للباي صالح الذي وصل إلى جبال العمور والصحاري أو بقائهم على الصورة الأولى التي كانوا عليها في معاهدة سنة 1510م. وقد استخدم لذلك الطريقة الأولى أي الأمن الاقتصادي وذلك بتهديده له بالانسحاب من المجال التجاري الذي قد مسكوا مقاليد (وهنا تظهر أهمية رأس المال الميزابي المتداول في السوق بالنسبة لاقتصاد الدولة التركية). إذ كان يحسب لهم ألف حساب وقد عرفت مكانتهم في الاقتصاد التركي (الجزائري).

ويقول الشيخ البكري:

"فلما أخضع الباي صالح جبال عمور والصحاري وما حواليتها حدثته نفسه بتحويل تبعية ميزاب إليه، ففاوض في الشأن باي الجزائر حسن الدولاتي، فقيل إنه أجاب طلبه نظراً لإخلاصه وحسن بلائه، بيد أن الميزابيين ثارت ثائرتهم واضطربوا اضطراباً شديداً لما يعلمون من سوء نواياه كما يصرح بذلك جوابهم إلى باي الجزائر الذي أعلنوا فيه في شمم رفضهم لتبعيتهم للباي صالح، فإما أن يبقيتهم على الحالة الأولى من تبعيتهم للسلطة المركزية، وإلا فليسرحوا أبناء ميزاب الذين دخلوا بلادهم بأمان وأرض الله واسعة الفضاء، حرر الكتاب نيابة عن ميزاب بأسره الشيخ الحاج إبراهيم بيحمان أحد تلاميذ الشيخ عبد العزيز الثميني صاحب النيل، وأحد شيوخ يسجن بعده ومما جاء في الكتاب: "...من المسلمين عليك جموع بني ميزاب المشاكين إليك ما نزل بهم مما لا طاقة لهم به، وذلك أنهم سمعوا أنك تريد أن تضرب عليهم الغرامة المالية على يد

صاحب الولاية الشرقية، غير ما كانوا عليه من قديم الزمان وتريد أن تبدل أحوالهم المسطرة من الأسلاف والأجداد.. إلى أن قال: فإن قلت لابد من هذا فابنا لأمر الله طائعون، ولكلامك سامعون، فسر حينئذ أولادنا الذين دخلوا الجزائر بأمان، الخادمين بضاعتها بالإحسان أن يقدموا إلى ما يريدون من البلدان وأرض الله واسعة مادام الزمان.

عجيب لمن يعيش بغير عز وأرض الله واسعة يراها والجواب أرسل إلى السيد إبراهيم بن صالح الأمين ويدخله إليه بواسطته على يد صهره الحاج علي بن عبد اللطيف، مؤرخ بتاريخ ذي القعدة 1206هـ، ثم جاءت الأخبار بعد ذلك بعدول باي الجزائر عن عزمه بسبب وقوع سوء مفاهمة بينه وبين الباي صالح أدى إلى مصرع هذا الأخير، ومن أبطن سريرة ألبسه راءها".

ونلاحظ أنه قد أسفر هذا التهديد عن عدول الباي. وهو أعرف بمدخيل الدولة التركية من ضرائب التجار، وكذا الأهمية الكبرى التي يلعبها الميزابيون في هذا المجال. وبالتالي بقيت المعاهدة على ما هي عليه سارية المفعول.

ونلاحظ كذلك من هذه المراسلات الدور الذي لعبته العزابة كسلطة على الميزابيين في التفاوض مع الدولة العثمانية وكذا تدبير شؤون أبناء الميزابيين في الغربية إذ هي السلطة الروحية عليهم في بلاد الشمال الجزائري.

معاهدة سنة 1541م (معركة برج بوليلة أو دار البارود):

وتعود أسبابها إلى الموقف الشجاع الذي قام به الميزابيون حيث وجه شارل الخامس (شارل كان) الإسباني حملته ضد مدينة الجزائر فاختار الربوات المحيطة بالجزائر ومن بينها ربوة بناحية (دريوط) في سهل مصطفى باشا لييني عليها برجا للمدفعية تسمى بدار البارود ولسرعة إنجازه فلقد جند له فرقة عمل كبيرة من جنوده

المشاة وأعلوه في وقت خيالي قدر بليلة واحدة لذلك سموه "برج بوليلة".

وقد أحيط بالفنادق وسلح بقطع المدفعية ذات العيار الكبير، ونظرا لأهميته العسكرية فقد سعي الميزابيون انطلاقا من واجب ولاء الدفاع الذي أبرم في معاهدتهم مع الأتراك إلى نسف هذا البرج إذ تسللوا متتكرين في زي النساء وقتلوا جميع ضباط الإسبان كما أستشهد عدد منهم قدر بثلاثين فداني. وقاموا بنسف ذلك البرج، وقد كان المهاجمون من الميزابيين التجار في مدينة الجزائر، ولذلك فقد حظوا بإعجاب وتقدير الحاكم التركي. وكمكافأة لهم خيرهم في الامتيازات التي يمنحها لهم فاختراروا:

- بقاء المعاهدة السابقة (معاهدة 1510م) سارية المفعول مع الاهتمام بتأمين الطرق التجارية أكثر.

- منحهم امتيازات الإشراف على قصابة الجزائر حتى يضمّنوا صحة الذكاة وحلية اللحوم.

- إحداث وظيفة أمين الميزابيين، يحضر المجالس الاستشارية كعضو كامل العضوية.

- الأخذ برأي أمين جماعة الحرفة وتنفيذ طلباته بخصوص إرجاع بعض الميزابيون إلى وادي ميزاب في حالة الخوف من انحرافهم أو في حالة معاقبتهم.

- منحهم أولوية فتح الحمامات وإدارتها.

وبذلك فقد عزز الميزابيون مكانتهم في الدولة التركية وكان لاختيارهم للتجارة والقصابة والترابة عدة أسباب سنذكرها في نظام الغربية لاحقا.

معاهدات العهد الفرنسي:

بعد مقاومة الميزابيين للاستعمار الفرنسي رفقة العثمانيين وبعد الهيمنة الاستعمارية الفرنسية، قام الميزابيون باللجوء إلى الدبلوماسية مع الاستعمار الفرنسي من خلال:

معاهدة 1853م:

بتاريخ 29 أبريل 1853م، أبرمت معاهدة الحماية بين المجتمع الميزابي والوالي العام للجزائر الكونت (راندون) على أن يعترف الميزابيون بسيادة الدولة الفرنسية وأن يدفعوا لها نفس الضريبة التي كانوا يدفعونها للدولة التركية والمقدرة بـ: 45000 فرنك فرنسي أن لا يساندوا أو يأووا إليهم من يثور عليها. ولهم على الفرنسيين أن لا يدخلوا بلادهم ولا يتدخلوا في شؤونهم وبذلك فقد كانت بنودها نفس بنود الاتفاقية المبرمة مع الأتراك، ولكن الاستعمار الفرنسي لم يوف بوعوده فبتاريخ 21 ديسمبر 1882م، صدر مرسوم إلحاق وادي ميزاب بفرنسا وهو إخلال ببنود المعاهدة. فقاوم الميزابيون ذلك بقاطعة سلبية للوظائف الإدارية المقترحة عليهم من طرف الاستعمار. وقد جسدت هذه المقاطعة ما للعزاية من دور كبير في تسيير شؤون البلاد. وكذلك أظهرت أهمية مؤسسات المجتمع كهيئة الغسالات "تمسردين" لمقاطعة كل ما يتصل بالفرنسيين من لباس ومواد وغيرها... وهذا يجسد تحرك جميع هيئات المجتمع والتنسيق الكامل لهذه الهيئات. ونظم مؤتمر الجماعة الدينية للنساء (مؤتمر لا اله إلا الله) مؤتمرا تحت رئاسة (مامة بنت سليمان) ضم جميع هيئات تمسردين للنساء لتطبيق المقاطعة.

بعد عرضنا هذا لأهم المعاهدات والطرق الدبلوماسية التي مارسها الميزابيون وهي عينيات على سبيل المثال لا الحصر ودون غوص في اتفاقيات العصر الحديث أو ما بعد الاستقلال الجزائري. سنعرض الآن للطرق التي حاول الميزابيون التعامل مع جيرانهم كتنظيم لحماية تجارتهم.

الميزابيون وجيرانهم:

يقول الشيخ البكري - رحمه الله -

"أما جيرانهم فيحيون حياة بدائية طبيعية، لا نظام فيها ولا قواعد، ليس لهم رادع من عقل، ولا وازع من دين. فحياتهم على عمومها حياة فوضى ونهب وقطع طريق، ويضاف إلى ذلك ما تأصل فيهم من أحقاد متوارثة وعنصرية عريقة في جهل مطبق قائم، وكثرة تضر ولا تنفع، فالإباضية معهم دائما في خوف، وفي عراك، عرضة لغاراتهم المتعاقبة، في دفاع، في مداراة، وضع لا يطاق ولا تستقيم معه الحياة، يتحتم على ما ابتلي به أن يفكر فيما يطفه ويتقي به شروعه، فاتخذوا لذلك الوسائل الآتية:

1- اتخذوا من بعض تلك القبائل أحلفا يستعينون بهم على دفع اعتداء القبائل الأخرى.

2- فتحو أسواقهم في وجوههم فسهلوا لهم المعاملات التجارية وتبادل المصالح عن طريق المقايضة، يجلبون محصول البادية من أغنام وألبان وسمن وإقط وصوف وشعر ووبر وجلود وحطب وأخشاب وغيرها... فيبادلونهم ثيابا وحبوبا وتمرا وغيرها من حاصلات الحضر.

3- يحسنون على محاييهم وضعفانهم بالصدقات المتنوعة، وتجدهم مساوهم مجالا لبيع الطباقي والأوطاب والكساكس وغيرها... ويأخذون بدلا من ذلك دقيقا وقمحا وتمرا وثيابا. كما يستخدمون أبناءهم عمالا في المزارع يضاف إلى ذلك كله أن الإباضية اتخذوا الشتاء موسما لتوزيع أوقات المقابر نظرا لعطلة أغلب السكان عن العمل، وشدة احتياجهم أيام البرد. فترى جموع الأعراب يأخذون نصيبهم منها. وأن الواحد منهم ليناله أحيانا ما يكفيه قوتا لكامل أسبوعه، أي حتى يعاد توزيع الصدقات إذا كان مقتصدا.

3- التنظيم الإداري عند المجتمع الميزابي:

لا أحد يستطيع أن ينكر ما للتنظيم من أهمية بالغة في الفكر الإداري المعاصر، ولقد استطاع الميزابيون خلق آليات تنظيم تعد بحق مدرسة جديدة في الفكر الإداري. ونظرا لأهميتها سأحاول ما استطعت إبراز ما لهذا التنظيم من دور فعال في تحقيق ظاهرة التجارة الميزابية.

لقد عرف الميزابيون التنظيم منذ مجيء أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي الفرسطاني، مؤسس حلقة العزابة. التي تحولت من حلقة علم إلى نظام إداري واجتماعي وسياسي واقتصادي عالي المستوى بل وأصبحت مدرسة جديدة في الفكر الإداري العالمي. وبذلك تحول المجتمع الميزابي من مجتمع القطيع إلى مجتمع مؤسسي أو مؤسساتي تحكمه النظم والمؤسسات التي لا تزول بزوال أصحابها. أي بمعنى من مجتمع قبلي يترأسه شيخ القبيلة (مجتمع عنقودي) إلى مجتمع مدني متحضر يخضع لآليات التنظيم الإداري بخصوصية مميزة. ولعله من هذه النقطة يترأى جليا سبب نهضة هذا المجتمع الذي تكيف مع نظمه الجديدة وأصبح مجتمعا قابلا للتمدن.

ويمكن تلخيص أهم المؤسسات الإدارية لهذا المجتمع في هذا المخطط التنظيمي للمجتمع الميزابي:

4- يتخذ الإباضية الأغنام يودعونها عندهم، فيستفيد منها الطرفان وقد يبعدها المودعة عنده ويدعي موتها أو فقدها فتبقى له.
5- يهادنونهم ويمنونهم ويضيفونهم كلما حلوا بالبلد.

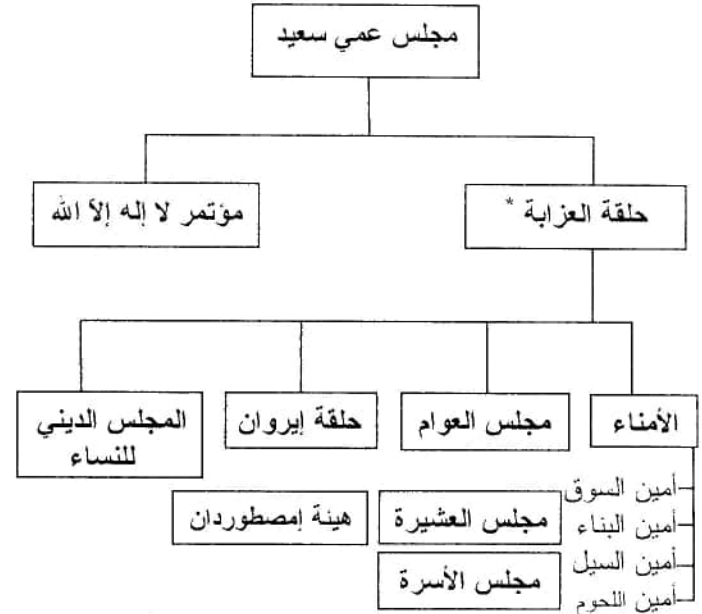
6- ظهر بعض الأغنياء الأسخياء في البلد عم إحسانهم من يوم قراهم من أي عرش كان سيما رؤسائهم. فكان لهذا الإحسان العام أثره المحسوس في إزالة السخائم من الصدور وكان بمثابة درع حصين يقي سكان الوطن من غارات بعض القبائل، وكثيرا ما يجر لهم أصدقاء، أو أنصار، ولا غرابة فالإحسان يستعيد الإنسان".
وهكذا فقد صور البكري صورة كاملة عن علاقة الميزابيين بجيرانهم والآليات التي استخدموها لربط أو اصر الصداقة معهم. وذلك حتى يضمنوا السير الحسن لقوافلهم التجارية وضمان وصولها وعدم التعرض لها.

ونلاحظ أن الكثير من الوسائل والآليات تم استنباطها بحكم التجربة الطويلة، وهذا ما يؤكد دون أي مجال للريب ما للسيرورة التاريخية من دور بالغ الأهمية في تفسير هذه الظاهرة.

مجلس عمي سعيد:

ويمكن تسميته بـ "مجلس العزابة الأعلى" وهو مجلس ديني اجتماعي يضم عزابة مدن وقرى ميزاب السبع إضافة إلى عزابة وارجلان ويقول الشيخ محمد علي دبور: "إن مجلس عمي سعيد هو الرأس المفكر لكل المدن الميزابية غدا حزبها أمر، وهو الجامعة التي توحد جهودها وإذا ادلهمت الأيام فإن رئيسها المطاع هو رئيس المجلس تقف المدن كلها وراءه صفا مرصوصا لتدفع الخطر الذي يحرق بها".

ويتكون المجلس من كبار أعضاء العزابة في المدن الإباضية. إذ يمثل كل مدينة ثلاثة أعضاء هم شيخ العزابة والإمام وشخص ثالث ينتخبه مجلس العزابة لتلك المدينة من بين أعضائه. إضافة إلى لجنة مساعدة مكونة من سبعة علماء فقهاء لهم علم ودراية بالمذهب الإباضي ويشتهرون بالمشورة وسداد الرأي. كما يمكن للمجلس الاستعانة برؤساء العشائر عند الضرورة ويجتمع مجلس عمي سعيد مرة كل ثلاثة أشهر بصفة دورية كما يمكن له الاجتماع الطارئ عند الضرورة. ومقر اجتماع هذا المجلس عادة بمصلى بجانب مقبرة، ولقد مرّ هذا المجلس بعدة مراحل. ورغم وجود اختلاف بسيط في الترتيب الزمني لسيرة هذا المجلس إذ نجد الأستاذ مسعود مزهودي يرى أنه قد كان الاجتماع في مجلس أبي مهدي عيسى بن إسماعيل ثم في مقبرة أبي عبد الرحمان الكرتي. فإن الأستاذ بكير أعوشة يقدم أبي عبد الرحمان الكرتي الذي عاش في القرن السادس ثم يأتي بعده مجلس روضة أبي مهدي عيسى بن إسماعيل (إبراهيم) الذي عاش في القرن العاشر الهجري. ولعله الأرجح إذ أخذ به الأستاذ بعمار عيسى في ترتيبه للوثائق التي صدرت عن هذه المجالس في كتابه (اتفاقيات المجالس العامة لميزاب). ونكاد نجد حصول شبه إجماع على أن مجلس أبي عبد الرحمان الكرتي أو أبي مهدي عيسى



المخطط التنظيمي للمجتمع الميزابي

* لكل مدينة أو قرية في ميزاب حلقة عزابة وبذلك يكون مجموع الحلقات داخل وادي ميزاب فقط 17 حلقات إضافة على عزابة وارجلان

إسماعيل وأخيرا مجلس عمي سعيد، مما هو إلا اسم لمجلس واحد كل في زمانه وبذلك قال صاحب كتاب (نظم الحكم والسياسة في الإسلام) استنادا إلى وثيقة أبرمت في مجلس أبي عبد الرحمان الكرتي ومجلس الشيخ عمي سعيد في نفس التاريخ وهي الوثائق المبرمة في شعبان 1254 هـ يرى أن هذين المجلسين وجدا في زمن واحد وكان لكل منهما تخصص معين أي بمعنى أن أحدهما كان مخصصا للعزابة والعلماء فقط في حين شمل الآخر أهل القصور من علماء وطلبة وعوام. ومهما كانت الأسباب أو التحليلات فإن المجلس الأعلى صار يسمى بمجلس عمي سعيد بن علي الخيري الجربي المتوفى سنة 898 هـ وصار يعقد بمقبرته في غرداية.

وينتخب رئيس المجلس من بين الأعضاء لمدة ثلاث سنوات وقد يحتفظ بمنصبه مدى الحياة. ومن مهام هذا المجلس:

- الإشراف على الأوقاف العامة للإباضية خارج وادي ميزاب
- الإشراف على شؤون الحجاج الإباضية وتأمين السكن اللازم لهم في البقاع المقدسة.
- الإشراف على شؤون الجماعات الإباضية الموزعة في المدن الجزائرية.

- بناء المساجد.
- بناء مراكز الإيواء للمسافرين (دار العرش في نظام الغربية).
- حل أي خلاف بين المدن الإباضية.
- الإشراف الكامل على العلاقات بين الإباضية وجيرانهم.
- للمجلس وحده حق إبرام الاتفاقيات والمعاهدات مع الأطراف الأخرى الخارجية (العشائر والقبائل غير الإباضية).
- إصدار فتاوي وآراء بخصوص بعض قضايا العصر الحديث.

مؤتمر لا إله إلا الله :

يعتبر مؤتمر لا إله إلا الله كتحقق لعزابات وادي ميزاب، أو كاجتماع عام للمجالس الدينية النسوية بوادي ميزاب. ويكاد يقابل مجلس عمي سعيد عند الرجال إلا أن لمجلس عمي سعيد سلطة نافذة على المرأة والرجل على حد سواء في حين يقوم هذا المؤتمر بالدور التربوي التنقيفي النوعي والتكويني من خلال تبادل الآراء ومعالجته بعض النقاط الخاصة بالمجتمع النسوي. وينعقد هذا المؤتمر مرة في السنة في فصل الربيع في كل مدينة من مدن ميزاب بالتناوب فيفتح بالدعاء وتلاوة القرآن ثم بخطب للتوجيه وتليها توزيع الصدقات ويستغرق يوما كاملا كما يمكن له أن يرفع بعض التوصيات إلى مجلس عمي سعيد عند ظهور بعض المستجدات.

حلقة العزابة:

نظرا للأهمية البالغة لهذه الهيئة في تسيير شؤون المجتمع الميزابي. وباعتبارها السلطة العليا في كل مدينة من مدن ميزاب سوف نحاول التفصيل المتميز فيها وذلك لأنها تكتسي حيزا كبيرا من حديثنا في تفسير الظاهرة.

العزابة لغة واصطلاحا:

الدلالة اللغوية:

العزابة جمع (عزاب) بفتح العين، مأخوذ من عزب عن أهله: انفرد عنهم. وجاء في لسان العرب لابن منظور: (عزب رجل عزب ومعزابة: لا أهل له، وعزبت الإبل: أبعدت في المرعى لا تروح وأعزبها صاحبها، وعزب إبله وأعزبها: بيثها في المرعى ولم يرحها) وهي تدل على معاني العزلة والغربة والتشوف.

الدلالة الاصطلاحية:

يعرف الأستاذ علي يحي معمر هذه الهيئة فيقول: "العزابة هيئة محدودة العدد، تمثل خيرة أهل البلد علما وصلاحا. وهذه الهيئة تقوم بالإشراف الكامل على شؤون المجتمع الإباضي". ويعرفها د. محمد ناصر "هيئة العزابة هي الهيئة العليا في البلد على الإطلاق لها النفوذ الروحي على المجتمع الإباضي والسلطة المطلقة في كل ما له علاقة بالدين أو بعبارة أوجز: الهيئة الشرعية الحاكمة القائمة مقام الإمامة العظمى في مرحلة الكتمان. كما يطلق على هذه الهيئة إسم "الحلقة" ويعني مجلس العزابة، لأن العزابة عندما يجتمعون يجلسون على هيئة حلقة أو دائرة ويعني في نفس الوقت "حلقة علم".

أعضاء هيئة العزابة:

- تتكون هيئة العزابة من اثني عشر عضواً، وقد يزيد إلى أربعة عشر عضواً. وذلك حسب كل بلدة و عدد سكانها. وتتكون من:
- شيخ الحلقة (وهو أكبر منصب في نظام العزابة).
 - إمام الصلاة .
 - المؤذن.
 - ثلاثة أعضاء يقرؤون التلاميذ .
 - أربعة أو خمسة أعضاء يغسلون الموتى.
 - وكيلاً للمسجد (وقد يكونان وكيلان لأوقاف المسجد).
 - قاضي البلد.

وتعقد اجتماعات هذه الهيئة في إحدى زوايا المسجد المخصصة للعبادة وقراءة القرآن، وقد خصص لها بعد ذلك دار بجانب المسجد يعتقدون فيها هي الأخرى الاجتماعات. ولا يسمح

لأحد من خارج الهيئة بحضورها بل حتى دخولها ذلك أن المجلس يحتفظ بكل وثائقه وقراراته في هذه الدار ويسمى المكان الذي يعقد فيه العزابة اجتماعاتهم باسم "تمنايت". ويعني "مكان الفرسان" أي فرسان الدين.

وأعضاء العزابة لا يتقاضون أجراً على عملهم وفي ذلك يقول الأستاذ محمد علي دبوز: "إن مجلس العزابة لو كان أعضاؤه يعملون بأجرة لأصبح محل أطماع الطامعين فيقدم إليه غير الأكفاء، وتصبح وظيفته محل المنافسة من ذوي الأطماع المادية فيدخل فيه من لا يليق ومن يضر المجتمع ولا ينفعه".

مهام حلقة العزابة:

لحلقة العزابة في المجتمع الميزابي مهام متنوعة حسب مكانة أعضاء الحلقة، مسؤولياتهم طبقاً للمهام المقدسة بينهم فالأربعة الأوائل أي شيخ الحلقة وإمام الصلاة والمؤذن وأقدم بقية الأعضاء نجدهم يتولون الحل والعقد في المجتمع ولا يتركون مناصبهم إلا بعد أن يتوفاهم الله فيخلفهم أقدم الجماعة في العضوية وهكذا... ولقد حدد د. محمد ناصر في كتابه حلقة العزابة مهام العزابة الدينية والتربوية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ونظراً لطبيعة الموضوع الاقتصادية سنسرد حديثه عن مهام العزابة الاقتصادية. أملاً أن يطلع القارئ الكريم على بقية المهام الأخرى في كتابه المفيد - جزاه الله خير الجزاء - .

يقول د. محمد ناصر: "وتشرف الحلقة على الجانب الاقتصادي من حياة المجتمع الإباضي. ترعاه بالتوجيه والتسيير ليبقى في حدود الشريعة الإسلامية لا يتعداها. فيعتني بالوعظ

والإرشاد في دروسهم بهذا الجانب عناية فائقة عملاً بقوله (ص):
(الدين المعاملة).

كما تتدخل الحلقة في تنظيم بعض الشؤون ذات الطابع الاقتصادي مثل مراقبة البيع والشراء في الأسواق ومحاربة الانحراف في التعامل التجاري مثل الغش والتطفيف والاستغلال والاحتكار وكل الظواهر التي نهت الشريعة عنها.

وأصبح من ظواهر الحياة اليومية في مدن الوادي أن يجلس أحد أعضاء الحلقة في السوق بين البائعين والمشتريين يراقب السير الرشيد للحركة الاقتصادية، وقد يتدخل العضو لفض الخصومات التي قد تطرأ بين المتعاملين والشركاء في الدكان والمصنع وقد يتوسط به عامل هضم حقه أو أهين معاملته.

ومن الغرابة أن يقوم بمهمة المحاسب والخبير التجاري فيلجأ إليه التجار ليقوم بعملية الجرد للتقويم السنوي ثقة منهم في ورعه وخبرته، ولا يكتفي العزابة بهذه المتابعة في مدن الوادي بل يتجاوزها إلى كل المواطن التي يوجد بها الإباضية الميزابيون... إلى قوله... ولا يخفى ما في هذا النظام من مراعاة جادة حكيمة للحياة الاقتصادية للمجتمع الإسلامي وهو في بعض صور امتداد للحسبة المعروفة عند الدول الإسلامية قديماً، وقد انقرض هذا النظام الإسلامي الهام أمام زحف المدنية الغربية بنظمها اللادينية، ولم تبق آثار نظام الحسبة موجودة إلا في واحة ميزاب بين سكانها الإباضية وتتمثل فيما يعرف بين أهل المذهب بنظام الطلبة أو حلقات العزابة" ويؤكد ذلك الأستاذ مسعود مزهودي بقوله: "كما أن العزابة يقومون بالحسبة حيث ينهاون عن المنكر ويأمرون بالمعروف ويقاضون المنحليين، كما كانوا يوقفون نشاط الأسواق لمدة معينة عند

حلول المواسم الدينية. ويهتمون بفتحها وإغلاقها في مواعيدها المحددة. كما كان للعزابة حبس الأشخاص المجرمين بعد الحكم في قضاياهم فيذكر الشماخي أن العزابة حبسوا رجلاً ماظلاً في تسديد دين كان عليه ولم يخرجوه من السجن إلا بعد أن دفع ما عليه (السير ص: 403).

وخلاصة القول أن مجلس العزابة استطاع تسيير المجتمع الميزابي بنجاح حيث فرض طاعته على الناس لكسبه احترامهم، ولما رأوه من استقامة الأعضاء ونزاهتهم وحفاظهم على دينهم وقوتهم في النهي عن المنكر ومحاربة الزانقين عن الحق.

ومما أتأسف له هو أن الشيخ البكري - رحمه الله - كان قد صنف رسالة طويلة بلغ عدد صفحاتها 100 صفحة، ذكرها الشيخ علي يحي معمر في بيان موقف العزابة في كفاح الباطل. وذكر الشيخ أنه فصل فيها أدوار العزابة.

وللأسف لم يتسنه لي مطالعتها، لذلك أوصي بالبحث الجاد عنها وتصنيفها ضمن أعمال الشيخ.

حلقة إيروان:

إيروان كلمة بربرية معناها طلب العلم، وتضم المستظهرين لكتاب الله والمشتغلين بدراسة والتخصص في العلوم الشرعية والعربية وهي جمع والواحد منها (إيرو).

وتحتل هذه الهيئة المرتبة الثانية في السلم التصاعدي للهيكل التربوي والاجتماعي في وادي ميزاب، وتلي حلقة العزابة مباشرة. وهي كالمجلس الاستشاري المساعد للعزابة. وكثيراً ما يسند العزابة أعمالاً إلى مجلس (إيروان)، ويكون لهم مقر خاص بهم وعادة ما

يكون بقرب المسجد يعقدون فيه اجتماعاتهم، وقد أنشأت لهم معاهد كثيرة بوادي ميزاب كمعهد القطب أطفيش ببني يزجن ثم المعهد الجابري، ومعهد الحياة بالقرارة ومعهد عمي سعيد ومعهد الإصلاح بغرداية.

ولحلقة إيروان دور هام في الحفاظ على نظام الحلقة الذي أسسه الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي الفرسطاني. وفي ذلك يقول الشيخ يوسف بن بكير الحاج سعيد: "ولعل الهيئة التي ورثت نظام الحلقة التي رتبها الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر هي جماعة إيروان أي طلبة العلم على شيخ المسجد، فهذه الجماعة يعلمهم الشيخ ويفقههم في الدين، واللغة العربية ولها مقر خاص بهم تابع للمسجد".

هيئة إمسطوردان:

ويمكن تسميتها بالعديد من المصطلحات ك: المكاريس، جماعة الحراسة، جمعية الشباب، إمسطوردان... وهي دلالة على هيئة تضم أغلب شباب المدينة، لا يقبل فيها إلا الصالحون. يرأسها كهول وشيوخ مدبرون حكماء صالحون تنتخبهم الجمعية انتخاباً حراً، وتنقسم هذه الهيئة إلى 3 أصناف (طبقات): الصغار، المتوسطون، الكبار. ولا يراعى في هذا التقسيم عامل السن كما ذكر علي يحي معمر - وإن خالفه بذلك مسعود مزهودي - وتتحصر مهام كل طبقة في:

- **طبقة الصغار:** الانقياد التام والطاعة الكاملة والقيام بكل الواجبات التي تكلف بها عند اللزوم دون تردد، ولها رئيس ومستشارون.

- **طبقة المتوسطون:** تنفيذ الخطط التي ترسم لها من طبقة الكبار، وعليها المعول والإعتماد الكلي في الحراسة وفي جميع

الأعمال الشاقة التي تستدعي مزيداً من الجهد والحذر والسرية ولها أيضاً رئيساً ومستشارون.

- **طبقة الكبار:** وهي تشبه مجلس إدارة موسعة لهذه الهيئة وعليها وضع الخطط وترتيب الحراسة واستكشاف نقاط الضعف منهم لتلافيها، والحضور لدى هيئة العزابة للمفاوضات والمراجعات التي تهم الهيئتين معاً.

ويستمد نظام إمسطوردان من روح النظام العسكري عند الدول، وهو مستقل تمام الاستقلال عن هيئة العزابة من حيث الإدارة والتصرفات، ولكنه يرتبط بالعزابة شرفياً (مبدأ الفصل في السلطات). فهو من العزابة بمثابة السلطة العسكرية من السلطة المدنية كما يقول الشيخ علي يحي معمر. وقد حظيت باعتراف العزابة والعشائر رسمياً. إذ خول لها حق التصرف باتخاذ الإجراءات المناسبة في جميع مجالات عملها دون تدخل أو اعتراض من أحد.

مهامها:

وتتخصر مهامها في:

- الحراسة والسهر على الأمن العام وحماية المجتمع من شُرور المنحرفين.

- الإشراف على الأشغال العامة، وتنظيم الأعمال التطوعية وتوزيع الصدقات في مواعيدها.

- المحافظة على قداسة مجلس العزابة وحمايته مما يهدده من الداخل والخارج.

فهو كما يقول الشيخ علي يحي معمر: "تقوم بمزيج من أعمال السلطة العسكرية وأعمال شرطة الأمن وشرطة الآداب،

وتستشير هذه الهيئة شيخ العزابة عن طريق ذوات محارم في قضايا التي تخص النساء، ولها جناح خاص يسمى (دار الغسالات) في المسجد يعقد فيها المجلس اجتماعية ويتلى فيها القرآن الكريم. وتتلى فيها الكلمات التوجيهية من طرف "العزابات".

كما أن المجالس النسوية تجتمع مرة في السنة بمجلس أو مؤتمر لا إله إلا الله (سابق الذكر) وقد لعبت هيئة تمسريدين دورا هاما في موضوعنا خاصة بعد ظهور نظام الغربة إذ أشرفت على تعويض النقص الكبير الذي عانت منه الأسرة في ظل غياب ربها. وذلك بالتربية والتوجيه والمساعدة. وذلك ما سألرجه في المرأة ونظام الغربة.

كما أنها لعبت دورا نضاليا ورياديا هاما خاصة ما قامت به رئيسة الغسالات (مامة بنت سليمان) بمقاطعتها السلبية رفقة جميع النسوة الميزابيات للبضائع الفرنسية من لباس ومواد وغيرها... وكان هذا الموقف المشرف من المرأة الميزابية دليل على مشاركة المجلس النسوي في فعاليات الحياة الوطنية.

مجلس العوام:

ويسمى أيضا بمجلس الضمان إذ يتكون من رؤساء العشائر في كل قرية أو مدينة. ويقول الشيخ علي يحي معمر: "ومن مجموع العشائر تتكون القرية أو المدينة ومن رؤساء المجالس يتكون الضمان، ورئيس الضمان يمثل الحاكم المدني للقرية". وإن كان الأستاذ يوسف بن بكير الحاج سعيد قد فصل في ذلك بعض الشيء فقال: "تضم كل قبيلة عددا من العشائر، وتنتخب كل عشيرة رئيسا لها يسمى ضامنا، ضمان القبيلة الواحدة يختارون من بينهم زعيما يسمى مقدم القبيلة. يرأس العرش أحد المقاديم وينوب عنه مقدم، وذلك

وأعمال رجال الحسبة، وأعمال شرطة النجدة، والمطافئ وأعمال المنظمات الكشفية..." أي نستطيع القول أنها التنظيم الشبه عسكري للمجتمع الميزابي. ولها قانون دقيق تتبعه مما جعلها منظمة أحسن تنظيم.

هيئة تمسريدين:

أو المجلس الديني للنساء، ويسمى كذلك بالغسالات ويختار أعضاء هذه الهيئة من مختلف القبائل والعشائر في القرية التي يوجد بها مجلس العزابة. ويشترط فيهن: العلم والورع والسمة الطيبة. ورغم عدم معرفة نشأته بالضبط إلا أن د. عوض خلفيات، ويقول أنه كان موجودا في القرن التاسع الهجري. وللمجلس سلطة عليا على النساء في كل البلدة ومن مهامه:

- تنقيف المرأة الميزابية وتربيتها تربية دينية صحيحة.
- مراقبة النساء في الأعراس والمآتم لكي لا يقع إسراف أو ما يخالف الدين.
- غسل الأموات من النساء والأولاد غير البالغين.
- مراقبة المهور وضبط ما يقدم للعروس منعا للإسراف.
- التحقق من بلوغ الفتيات.
- الصلح بين العائلات.

ويضيف الأستاذ محمد علي دبور قائلا: "المجلس الديني للنساء يعين مجلس العزابة في تنقيف المرأة الميزابية، وترتيبها تربية صحيحة. ومراقبة المجتمع النسوي في الأعراس والمآتم، لكي لا يقع فيها إسراف أو ما يخالف الدين، وإذا تمرت امرأة ولم تجد فيها الموعظة يتبرأ منها المجلس النسوي في مسجد النساء فيقع لها ما يقع للرجل بالبراءة فتسرع إلى التوبة..."

بالتناوب بين القبيلتين أو الثلاث. رئيس العرش يسمى رئيس الجماعة أي جماعة الضمان".

ولقد ألغي إداريا بعد الاستقلال بقيام المجلس البلدي مقامه إداريا. وإن ما زال سائر المفعول اجتماعيا ومتعاوننا مع العزابة. يعتبر المجلس السلطة التنفيذية في المجتمع، إذ يتولى الأمور العامة للبلدة بإصدار القرارات والإشراف على حفظ الأمن، وحراسة البلد واستقبال رؤساء القبائل المجاورة. والإشراف على وسائل تنمية الموارد الاقتصادية. والمشاركة في المشاريع الخيرية مثل بناء المساجد، وتنظيف المدينة وحفر الآبار وبناء السدود وأسوار البلدة... الخ.

مجلس العشيرة:

يعتبر مجلس العشيرة الساعد القوي لمجلس العزابة ومجلس إمسطوردان. إذ تعتبر العشيرة النواة الأولى في كل قرية من قرى وادي ميزاب. والعشيرة حسب تعريف الشيخ الحاج أيوب إبراهيم بن يحيى القرادي: "هي مجموعة عائلات تتحدث في الغالب من جد واحد... إن العشيرة ليست وحدة عرقية كما يبدو ولكنها وحدة تنظيمية أو وحدة اجتماعية. ومهما يكن من أمر فإن نواة العشيرة الأولى تكون عرقية لا مدالة ولكن إمكان قبول كل من يطلب الانتماء إليها بالاختيار أو بالولاء يخرجها من دائرة القبيلة المحضة".

ولكل عشيرة مجالس غير محدد العدد من زعماء العشيرة وذوي الرأي والفضل منهم. وللمجلس رئيس يختار من بينهم.

مهامه:

تتلخص مهامه فيما يلي:

- دراسة مشاكل العشيرة والنظر في الحلول.

- معالجة الانحرافات التي تقع من بعض أفراد العشيرة.
- الإشراف على المآتم والأعراس وتنظيمها، وتأديب المنحرفين ومعاقبة المصيرين على المعصية.
- جمع ما يفرض على العشيرة من إتاوات وضرائب أو غرامات أو التزامات بأساليب تتفق والمستوى الاقتصادي لكل أسرة ثم إيصال ذلك إلى الجهات المختصة.
- رعاية الأيتام والأرامل والفقراء والسفهاء والمجانين وتزويج أبناء العشيرة وكفالتهم.
- تتولى دية القتل الخطأ، إذ تقسم بين الأفراد البالغين من العشيرة.

- الاهتمام بالضيوف وتجهيز دار الحجابة لهم في حالة عدم قدرة صاحب الضيافة على توفير المكان الواسع لإقامتهم.

وفي الميدان التجاري تتولى العشيرة مساعدة من أفلس من التجار أو وقعت له خسارة كبيرة بأن يجمع له المبلغ المعوض فيقوم من جديد بنشاطه وأعماله وهذا من أكبر مظاهر التكافل الاقتصادي. كما أن المجلس يسعى إلى محاربة البطالة والفقر من خلال إيجاد مناصب شغل لأبنائه وكذا مساعدة الأرامل والأيتام.

ويعقد المجلس اجتماعاته كلما دعت الضرورة وعند كل شهر تقريبا وجلساته العامة مرتين في العام في الغالب حسب الشيخ علي يحيى معمر.

مجلس الأسرة:

تمتاز الأسرة في وادي ميزاب أساسا بتمسك أفرادها. لهذا نجد أن الآباء يبذلون أقصى ما يستطيعون في تربية أبنائهم دينيا وأخلاقيا وبدورهم الأبناء يقومون برعاية آبائهم نفسيا وصحيا واقتصاديا،

- أمين السيل: يهتم بتقسيم المياه على البساتين، ويراقب أبواب السدود.
- أمين السوق: يراقب السوق والدالين، ويحدد أجرة الدلال ويعوض دور الحسبة.
- أمين اللحوم: يقوم بمراقبة المجازر وسوق اللحم.

ملحوظات حول التنظيم الإداري عند المجتمع الميزابي:

بعد هذا العرض لمكونات الهيكل التنظيمي للمجتمع الميزابي، نجد أن أهمية هذا النظام الفريد والبديع الذي أسسه أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي الفرسطاني منذ القرن الخامس الهجري يمتاز ببعض النقاط التي سأحاول إيضاحها فيما يلي:

هرمية التنظيم:

إن الملاحظ والمتأمل لهذا التنظيم يجد أنه عبارة عن هرم إداري أعلاه المجلس الأعلى وأدناه الفرد الميزابي. كما يلاحظ أن الهرمية قد تجسدت في عمرانه الفريد بهندسته فعلى قمة هذا الهرم نجد المسجد وفي هذا يقول د. إبراهيم بن يوسف: "هيكل الحلقة في شكل هرمي تتشكل قاعدته بالتلاميذ الذين يبتدئون الدراسة، دراسة القرآن والحديث، ثم تأتي طبقة الطلبة ويسمون بالبربرية (أبروان) ويزنقى إلى هذه الدرجة حفظة القرآن وعمار المسجد ووظيفتهم أساسا التدريس. ويتابعون في نفس الوقت دراستهم العليا في علوم الشريعة على أيدي مشايخ وفقهاء، ثم يأتي على رأس الهرم مجلس العزابة ويتشكل من 12 عضوا ينتقى أعضاؤه من طبقة الطلبة

وكما يقول الشيخ طلاي إبراهيم: "وتمسك الأسرة بتجلى بالخصوص في النشاطات الاقتصادية إذ يتولى مجلس إدارة الشؤون الخاصة بالأسرة الكبيرة وتتمثل أدواره في أنه يسهر على مصالح أفرادها ويحافظ على سيرة أبنائها، فلا ترى فيهم يتيما ضائعا ولا مقعدا ولا معوزا ولا أرملة ولا غائبا ضاع حقه، وفيما إذا انحرف أحد أبنائها أو بناتها يحاولون إصلاحه وتأديبه في حدود استعمال أسلوب التأثير النفسي، وكثيرا ما فضت مشاكل وخصومات بواسطة هذا المجلس، ولو تركت لاستفحل داؤها وصعب علاجها وغالبا ما يشاهد نشاط هذه المجالس في أيام الأفراح أو الأتراح إذ يعتبر عرس أحد أبنائها عرسا للجميع ورزء أحد أفرادها رزؤهم جميعا".

ولقد لعبت هذه المجالس دورا كبيرا في الحياة التجارية لا سيما إذا علمنا أن غالب الشركات التجارية كانت نواتها مجالس الأسرة.

الأمناء:

بعد الاستقلال وبعد زوال المهام الإدارية لمجلس الضمان. لم يبق من مجلس الضمان إلا هذه الهيئة أي الأمناء وهي تضم مختصين في شؤون المجتمع يراقبون ويحافظون على تقاليد البلد بمقتضى الأعراف والقوانين. ويعين الأمناء من طرف العزابة في الوقت الحالي. وقد يكون عزابا إذ يشارك العزابة الأمناء.

تقسيم الأمناء:

ينقسم الأمناء حسب تخصص كل واحد منهم إلى:

- أمين البناء: يراقب ويراعى حرمة الحرم، وحق الجار والسترة، وحق الشارع وقوانين البناء الموجودة في عرف القرية.

ويشترط فيهم الكفاءة العلمية والاستقامة والإلتزام وعمارمة المسجد، ويرأس المجلس رنيلها هو الشيخ...".

إن المجتمع الميزابي كان سابقا للتنظيم الإداري. وقد كان علماءه سابقين لعلماء الإدارة الحديثة من أمثال (هنري فايول) صاحب نظرية التنظيم. وأثبتوا بما لا يدع مجالا للريب أن الفكر الإداري الإسلامي بفهم إياضي مدرسة إدارية سابقة. جدير بنا أن ندونها في قاموس الفكر الإداري العالمي لأنها النموذج المثالي لمفهوم التنظيم الإداري الإسلامي الميزابي.

مبدأ الفصل في السلطات:

أو ما سماه د. إبراهيم بن يوسف: "لا مركزية السلطة"، فنجد أن التنظيم الإداري عند المجتمع الميزابي يمتاز بهذا المبدأ. فقد قسمت صلاحيات هيئاته على:

- هيئة تشريعية: العزابة ومجلس عمي سعيد.
- هيئة تنفيذية: مجلس الجماعة أو العوام وتقسيماته.
- السلطة القضائية (العدلية): "فرغم أن القاضي عضو في حلقة العزابة يرجع حق تعيينه إلى مجلس الجماعة وحق إثبات أو إلغاء التعيين إلى مجلس العزابة الذي يراعى فيه الكفاءة والاستقامة والالتزام. وتبقى السلطة العدلية مستقلة تتعامل بنفس مصادر التشريع الكتاب والسنة والفقه الإباضي، وقد تفصل حلقة العزابة في بعض المظالم التي تتجاوز مستوى القاضي".

- السلطة الأمنية العسكرية: هيئة التلاميذ أو إيروان.

كما أنها عرفت أيضا لا مركزية جغرافية فكل عزابة لها الصلاحيات على إقليم قريتها أو مدينتها، وفي ذلك يقول د. إبراهيم بن يوسف: "إن ضبط المؤسسات تبعه ضبط وتحديد صلاحيات كل

مؤسسة وتبع ذلك تقسيم المهام والسلطات التي كانت مركزة كلها في شخص الإمام في تيهرت وتوزيعها بين المؤسسات فعدادت الإدارة والسلطة التنفيذية إلى هيئة تمثيلية للهيكل الاجتماعية وهي مجالس الجماعة وعادت سلطة التشريع والتصور إلى حلقة العزابة وذلك لاختصاصها في الشريعة كما راعى الإباضية في ميزاب لا مركزية السلطة جغرافيا فخلافا لتيهرت التي افترقت إلى حدود مكانية قارة.

ففي ميزاب ترتبط سيادة المؤسسات بحدود مكانية تنطبق على مجتمع مهيكل وعلى حدود قارة ومعروفة. وكلما تعددت المدن تعددت هيكل نظامها ومؤسساتها، فأصبحت المدن في ميزاب تسير كجمهوريات مستقلة، كل واحدة بمجتمعها وحدودها ومؤسساتها التي لها السيادة الكاملة والمستقلة على ترابها.

ومع التعددية ونشأة المدن الجديدة ظهرت مجالس، أصبحت لها صلاحيات تسيير الشؤون المشتركة بين مدن جمهوريات ميزاب المستقلة في شكل كونفدرالية. وهي مجلس الشيخ عبد الرحمان الكرتي ومجلس الشيخ أبي مهدي عيسى بن إسماعيل ومجلس الشيخ عمي سعيد. أما مجلس الشيخ عبد الرحمان الكرتي فيتشكل من ممثلي كل مدينة جمهورية للمؤسسات أي مجلس الجماعة (الجهاز التنفيذي والتمثيلي الاجتماعي) ومجلس العزابة (الجهاز التشريعي، وهو من الأعلام والفقهاء). فهو يتشكل من أعوام وخاصة من وجود المجتمع ومن مشايخها وهو جهاز تشريعي يفصل في القضايا العامة المشتركة ويصدر اتفاقيات وقواعد تلتزم بها كل المدن في حدود اختصاصه".

المستويات الإدارية:

نجد أن هذا التنظيم قد عرف ثلاثة مستويات إدارية:

- المستوى الأعلى: ويتمثل في المجلس الأعلى للعزابة (مجلس عمى سعيد)، ويتولى التخطيط الإستراتيجي للمجتمع. كما لاحظنا أنه يتولى إبرام الاتفاقيات والمعاهدات وكذا السلطة التشريعية العليا في البلد.

- المستوى المتوسط: ويتمثل في حلقات العزابة ومجالس الجماعة في كل بلد ويتولى التخطيط التكتيكي (متوسط المدى) والإشراف على تسيير شؤون المدينة.

- المستوى الأدنى: وهي الهيئات التنفيذية بدءا بجماعة إمسطوردان (المكارييس) ومجالس المشائر والأسر حتى الأفراد. ويتولى التخطيط التشغيلي الآتي، على المستوى قصير الأمد. من برامج عمل تصب وفق المخططات التي حددتها المستويات الأعلى. والملاحظ هو احترام كل الهيئات للمستويات الإدارية التي تعلوها. ووجود نظام محكم يصب وفق آليات تنظيم إداري وحضاري راق.

والجدير بالانتباه هو أن العزابة تقوم بكل الوظائف الإدارية التي تكلم عنها علماء الإدارة الحديثة من تخطيط وتنظيم ورقابة وتقييم وتنسيق.

فالإلى متى نبقى نأخذ الدروس من غيرنا وفي أيدينا ما يغنيا لو فقهنا. هذه فقط بعض الملحوظات التي حاولت تسجيلها وذكر سبق التنظيم الإداري للمجتمع الميزابي في مجال التنظيم للمدرسة الفرنسية وكل المدارس العالمية الأخرى. أملا أن نساهم في إرساء معالم ما نستطيع تسميته (MANAGEMENT MOZABITE)

4- نظام الغربة وآليات التسيير التجاري:

نظام الغربة:

إن بني ميزاب في العهد الثالث من تاريخهم الإسلامي والذي يمتد من نهاية القرن الثامن إلى منتصف القرن الثالث عشر الهجري أي من نهاية القرن الرابع عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي بدؤوا يخرجون من العزلة ويخرفون السياج الذي فرضته الطبيعة حولهم من جبال حاصرة مانعة، ثم ينطلقون إلى أنحاء مختلفة من القطر الجزائري يحترفون التجارة بالإضافة إلى تزايد السكان وضعف المردود الفلاحي الشيء الذي أجبر الميزابيين على التفكير في موارد أخرى للعيش يضمنون بها بقاءهم في المنطقة فأخذوا في الاغتراب إلى مدن التل قصد التجارة.

إن الفلاحة لا تضمن للميزابي الذي يقتصر نشاطه عليها مستوى معيشي مقبول فمشكل الري وإنهاك التربة يفرضان حدا للمساحة المزروعة ومردودها. هذه الظروف جعلت من الواحات بؤرا للاغتراب فأصبح مع الأيام كل الشباب الميزابي يتطلع إلى اليوم الذي يفارق فيه المسحاة والمنجل والدلو ويغادر هذا المجتمع الذي يرى أنه يحيا حياة رتيبة مكررة يومية إلى بلاد التل كما يسمونها ليعود بعد سنوات من الغربة بما كسبه من عمله من التجارة فيجد مواطنيه قد التقوا حوله يعاملونه بكل تكريم واحترام واعتزاز.

أسباب الغربة:

ولمعرفة أسباب الغربة يمكن ملاحظة الآتي:

1- ضعف النشاط الرعوي:

يشكل النشاط الرعوي مصدر ثروة طبيعية كبيرة للعديد من المناطق الصحراوية وذلك ما تفتقره مناطق بني ميزاب، وذلك لقلة الموالين والمربين بمنطقة الشبكة إضافة إلى أن الرعي اقتصر تطوره على بعض المناطق كالمشرية والنعامية في الشمال وبعض مناطق الواحات في الجنوب في حين شهد تطوره تدهورا ملحوظا بمنطقة وادي ميزاب فيما يخص الثروة الحيوانية وبالخصوص الغنم والماعز فحسب الإحصاءات فقد شهد تدهور عدد الرؤوس من الماعز من 123413 رأس من سنة 1910 م، إلى 64292 رأس سنة 1928 م. هذا الرقم الذي شهد تدهورا كبيرا ومخيفا بين سنوات 1930 م إلى 1945 م. بعدها كانت مرحلة إعادة وانطلاق ابتداء من سنة 1945 م.

2- ضعف المردود الفلاحي:

بما أن الميزابيين لم يهتدوا أبدا بتحصيل مواردهم من النشاط الرعوي فهم على النقيض من ذلك أولوا عناية كبيرة بالنشاط الفلاحي لتلبية حاجياتهم في غياب النشاط الصناعي، لكن صعوبة المنطقة وقلة الموارد المانية حددت من نشاطهم الفلاحي وتذكر الإحصاءات أنه على مستوى الجنوب توجد 6.350.000 نخلة من بينها: 5.000.000 نخلة منتجة. حصة الميزابيين منها لا تتعدى: 175.000 نخلة منتجة، من بينها: 81.000 نخلة أنتجت: 2430 طن سنة 1952 م بمعدل 30 كلغ للنخلة وهو مردود ضعيف جدا. وإزاء هذا الوضع فقد أنشأ الميزابيون بعض الحدائق للخضر والفواكه لكنها لا تكفي لتموين وسد حاجيات 53.000 مواطن مما دفعهم لاستيراد التمور من ورقلة والمنيعية وعين صالح، والخضر والفواكه من المدية والهضاب العليا ومنتجة. وهذه في الغالب لتلبية حاجيات الاستهلاك المحلي. عرف وادي ميزاب بين سنة 1943 و 1949 م فترة قحط وجفاف أثرت سلبا

على عشرات الآلاف من الحدائق والبساتين، إذ أن الأودية جفت وهذا ما دفع المواطنين على حفر آبار يزيد عمقها عن 40 و 50 متر لاستخراج المياه الباطنية والجوفية. وحيال هذه الأوضاع الصعبة لم يكن حيال الميزابيين بديل عن الغربية إلى التل لتحقيق النجاح المطلوب والرفاهية الاقتصادية المتوخاة.

تطور نظام الغربية:

كان انطلاق التجار في بادئ الأمر. على نطاق ضيق يشبه أن يكون تلمسا لمنفذ واستطلاعا لمجهول وكان يتم على سبيل الطموح الفرد والتجربة الشخصية. فقد كان أهل غرداية يكثر ذهابهم الى قسنطينة وسطيف وغليزان.

وأهل بني يزقن إلى قسنطينة وقالمه وسوق أهراس والبليدة.

وأهل العطف إلى الجزائر وقسنطينة.

وأهل بونورة إلى الجزائر وتيهرت.

وأهل مليكة إلى الجزائر وباتنة وخنشلة والصور وبو غار.

وأهل بريان إلى الجزائر وقسنطينة.

وأهل القرارة إلى العلمة وباتنة وخنشلة والبليدة.

وكان بعض الميزابيين يقصدون تونس وليبيا والإسكندرية.

أكثر المغتربين إلى تونس من غرداية والقرارة وبني يزقن

يكثر عددهم بالعاصمة وجربة. أما في غيرها فنجد مثلا في سنة

1953م تسع عائلات ميزابية في تونس.

نجد في إحصاء نوفمبر 1952م أن عدد الميزابيين في سكيكدة وبجاية 57 عائلة وعددهم في سوق أهراس 10 عائلات وفي المدينة 364 عائلة.

في حين توزعت تجارتهم كالآتي:

- فقد اختص أهل العطف في اللحوم والبقول.

- وأهل غرداية وبني يزقن في الأقمشة والألبسة.

- وأهل بونورة في الفحم والخشب والزيت.

- وأهل مليكة في الحبوب والتمور والحمامات.

- أما أهل بريان والقرارة فتجارتهم كانت متنوعة.

ولقد كون التجار الميزابيون في سنة 1932م في الشرق الجزائري نقابة دفاعية بعمالة بعمالة قسنطينة يرأسها الحاج صالح بن محمد زكري، وكانت أوب بن عر طلاي. فأيدوها عام 1936م . لما فصح أمر اليهود واشتدت وطأتهم بمؤسسة أخرى تحت اسم شركة (شرق الجزائر للمنتوجات). وبهاتين المؤسستين استطاع التجار الميزابيون أن يستوردوا الأقمشة والمنسوجات وفي نفس السنة دعم الميزابيون هاتين المؤسستين بمؤسسة عامة ثالثة تحت اسم (جمعية التعامل العامة) برئاسة الشهيد إبراهيم بن حاج حجوط ونائبه الحاج إبراهيم أبي اليقظان. فكانت لهاته المؤسسات الثلاثة أكبر أثر في إحباط مؤامرات اليهود في التقليل والتفجير.

من جهة أخرى فقد اتجهت همة بعض الميزابيين إلى إنشاء علاقات تجارية مع إفريقيا السوداء. من ذلك أنه في نوفمبر 1940م تأسست شركة (دواق وزكرياء للتجارة) في بماكو عاصمة مالي، تضم السادة: دواق عمر بن داود ودواق إبراهيم بن صالح وزكرياء السعيد بن زكري، يحيى بن زكري.

في سنة 1948م (1367هـ) أنشأت جمعية النور (شركة فتح النور التجارية للبيع بالجملة) في قلب العاصمة زاحمت اليهود في تجارة الجملة، وكانت مركزا لمصلي الجنوب بالعاصمة وقد بلغ العدد الإجمالي للميزابيين العاملين في التجارة خارج ميزاب في الخمسينيات حوالي 6000 ميزابي، أما عدد الدكاكين فكان 1418 دكان عام 1953م وتقصيله:

- 645 دكان في عمالة الجزائر بمدن الجزائر، الخميس، الحراش، الجلفة وغيرها...
- 445 دكان في عمالة قسنطينة بمدن: قسنطينة، سطيف، عنابة، سكيكدة، قالمة، سوق أهراس، العلمة وغيرها.
- 196 دكان في عمالة وهران، تيارت، مستغانم، غليزان وغيرها...
- 123 دكان في مناطق الجنوب بمدن بسكرة توفورت وغيرها...

وقد كان يملك منها:

- أهل بني يزقن: 267 دكان.
- أهل مليكة: 87 دكان.
- أهل غرداية: 413 دكان.
- أهل القرارة: 201 دكان.
- أهل العطف: 180 دكان.
- أهل بريان: 160 دكان.
- أهل بنورة: 110 دكان.

انطلاقا من هذه الإحصاءات نلاحظ أن عدد الدكاكين: 1418 دكان، يقابل عدد سكان 31.000 ميزابي بمعدل: دكان لكل 86،21 ميزابي. ومع العلم أن هذه الدكاكين ملك لعائلات فيمكننا القول أنه كل عائلة ميزابية تمارس التجارة.

تنظيم التجار الميزابيين في نظام الغربية:

عندما زادت الرغبة في الانطلاق إلى الغربية أصبح الشباب يتنافسون عليها ويتسللون من وادي ميزاب نحو التل، خشى المفكرون والمصلحون أن ينتج عن ذلك عدد من المضار والمشاكل فسارعوا إلى دراسة الموضوع، ووضع تنظيمات للحد من هذه المشاكل المتوقعة وأخذ التدابير اللازمة ويمكن حصر هذه المشاكل في:

- الانحراف بسبب الفشل.
- الاغتراب تهربا من العمل.
- استيطان بلد الغربية طلبا لرفاهية العيش.
- تناقص الإنتاج في وادي ميزاب بتناقص اليد العاملة.
- الانحلال الديني والخلقي.

وقد عولجت كل هذه التخوفات والمشاكل بأشكال معينة من التنظيم في بلاد الغربية وهي كالتالي:

نظام خلايا النحل:

يعرف الأستاذ علي يحي معمر هذا النظام بقوله: "أقصد بخلايا النحل في هذا المقام تلك المتاجر التي تعج بالحركة في أوقات الحركة والهدوء في أوقات الهدوء، حسب تنظيم دقيق والتي يوجد في كل متجر منها عدد من العمال يسمونهم صناعا. يشرف عليه عدد من أرباب العمل تحت رئاسة واحد منهم قد يكون أكبرهم سنا ولكن

لابد أن يكون أكثرهم خبرة وأقدمهم في ميدان العمل وأعلمهم بتقلبات أحوال الاقتصاد في البلاد والعالم".

هذا المتجر الذي تتحرك فيه مجموعة بشرية بنظام دقيق وقيادة واعية، قد روعي أن يكون فيه جميع ما ينبغي لهذه المجموعة البشرية لحفظ عليها دينها ودنياها ويصلح بها وطنها العام والخاص. فهو في الحقيقة خلية بشرية تجمع فيها المال والدين والخلق.

وقد حرص مصمموها أن يحددوا لأفرادها مراتع المال ومراتع الدين ومراتع الخلق. لقد راعى بنو ميزاب أن تكون متاجرهم ومصانعهم في كل مدينة من مدن الجزائر وغيره خارج بلادهم خلية من هذا النوع، ومن مجموع الخلايا والمتاجر في المدينة الواحدة يتكون المغتربون الميزابيون في ذلك البلد يربط بينهم جميعا تنظيم عملي يشرف عليه كبار الحرفة ومسجد يؤدون فيه الصلاة في ثلاثة أوقات على الأقل وهي صلاة العصر والعشاء وصلاة الفجر. ويعقب هذه الصلوات أو بعضها في أحيان كثيرة دروس أو مواعظ أو نصائح أو إرشادات، وقاعة فسيحة للمداولات لأهم القضايا.

وقد بنيت خلاياهم أو متاجرهم على أسس معينة هي:

1- بناء التجارة أو الصناعة على المشاركة: حتى يكون لكل محل ولكل خلية عدد من المالكين، ذلك يسهل على كل منهم أن يأخذ وقتا كافيا للاستقرار في وادي ميزاب ففي الوقت الذي يشرف بعض التجار على أعمالهم في التل تتاح الفرصة لشريكه أو شركائه أن يكونوا في إجازة يستمتعون فيها في وطنهم. ويشرفون فيها على أعمالهم ويتخذون لها من التنظيمات ما يفي لسيرها فترة أخرى من

الزمن على أن الفرص التي تتاح لهؤلاء الشركاء تطول وتقصر بحسب ضخامة الأعمال وعدد الشركاء.

2- الاستكثار من الصناع: بحيث يكون في كل خلية (محل تجاري أو صناعي) فائض من عدد العمال المحتاج إليه فعلا وذلك ليتمكن المحل من الاستغناء عن بعضهم في فترات من السنة حتى يستطيع بعض أولئك العمال أن يقضي إجازته في بلده. وكما نعلم أن أغلب هؤلاء الصناع يكونون من الشباب الصغير، وفيهم غير المتزوجين وبعضهم دون المراهقة فهم يحتاجون إلى إجازات قصيرة ولكنها متقاربة لإطفاء شوقهم وشوق أسرهم إليهم ومساعدة أسرهم في أعمالهم أثناء إجازتهم القصيرة، ثم يعودون لمزاولة أعمالهم في نشاطهم التجاري وهم أكثر حيوية ونشاط واشد إقبالا عليها. ومن كانت له دراسة منهم يعود ليستمر في دراسته.

3- التكوين منذ الصغر: يحرص أغلب أصحاب المتاجر أن يصبح معهم أطفالهم أو أطفال غيرهم، عندما يكونون مرتبطون بالدراسة إلى متاجرهم في ديار الغربية وهم يقصدون بذلك بالإضافة إلى تغيير رتبة الحياة عند أولئك الأطفال وإلى تدريبهم على الأعمال التجارية، تنمية ملكة الاقتصاد فيهم وتعويدهم على حياة المغامرة والحياة في الغربية وعلى الاعتماد على النفس وللحصول على مطالب الحياة، وأهم من كل ذلك تكوين جيل واع يخلف الجيل الذي سبقه في إدارة الأعمال.

وقل أن تجد ميزابيا في أي مجال من مجالات الحياة لم يزاول العمل في التجارة في مرحلة من مراحل عمره، أو كان ذلك في السنوات الوسطى من طفولته وهو أثناء عمله في التجارة لا بد أن يتلقى أجرا عن عمله فيها حسب ما يقدره جماعة الحرفة كما يقدر

أجور العمال المستديمين الكبار، وذلك تسلسل في أجيالهم حسب التجارة والمغامرة فيها. واصطبحت الغربية عندهم من لوازم الحياة لا تستقيم بدونها ولا يمكن أن يتكون الرجل على النمط الذي يريدونه لأجيالهم إلا إذا أخذ قسطه من حياة الاغتراب وجرب قدرته على الحركة في إطار أوسع من إطار بلد واحد ضيق ومحدود وبهذا الأسلوب من التربية، فإن الحياة لا تضيق على الميزابي وإنه كفيلا أن يشق طريقا لحياة شريفة ونظيفة ثم مريحة.

4- تحديد مجالات العمل: كان من أهم نقاط التنظيم الحرفي الذي اتبعه بني ميزاب في توجيه أبنائهم في بلاد الغربية هو تحديد مجالات العمل. فلم يسمحوا للإباضي المغترب أي يزاول في ديار الغربية عمل يدر عليه كسبا كيفما كان وإنما حددوا مجالات العمل بناء على فلسفة انبنى عليها كل تخطيطهم لحياتهم في ديار الغربية، فحرصوا أن تكون تلك المجالات مما يتيسر فيه العمل الجماعي لأنه يقوم على تعاون مجموعة من الناس تسيرهم انظمة ثابتة. وبأن تتوفر في ذلك المجال صورة للبيئة التي كانوا يعيشون عليها في بلدانهم، وأن تكون تحت الإشراف المستديم، وأن تكون بعيدة عن متناول ما يحرم، وأن تكون من طبيعتها تدعو للتجمع والتكفل، وأن تكون مما يتيسر فيه تنظيم الوقت. فحددوا العمل عندهم في ثلاث مجالات: التجارة بالدرجة الأولى ثم الصناعة ثم الحمامات. واحتكروا لأنفسهم القصابة المركزية بالجزائر العاصمة، ولم يسمحوا لأبنائهم بالعمل بالزراعة خارج وطنهم سواء كانت بامتلاك المزارع أو بالعمل عند المزارعين أو المعمرين. ولم يسمحوا لهم أيضا أن يقوموا بالأعمال البدنية في المنشآت أو الموانئ أو غير ذلك من المجالات الكثيرة التي يجد فيها الأفراد مجالا للكسب. ونظرتهم في هذا أنهم يحرصون

بالدرجة الأولى على دينهم وبالدرجة الثانية على وطنهم ولا يسمحون أبدا لأي فرد أو أي عمل أن يؤثر على أحدهم ولو أطلق العنان لأبنائهم يشغلون كما يشاءون لصعب الاتصال بهم وتجميعهم فانفرط عقدهم وتورطوا في سلوك يبعدهم عن وطنهم.

النقابات المهنية:

هو التنظيم الذي وضعوه ليضمن لهم نجاح المغتربين في أعمالهم بتهيئة الظروف المناسبة التي تساعد على المحافظة على الدين وعلى الاحتفاظ بالخلق القويم وعلى تنظيم عملية الاغتراب تنظيما يكفل لهم مكاسبهم ويجنبهم المشاكل والضرار. وقد شكل بنو ميزاب هذا النظام خشية على أبنائهم من الضياع في زحمة الحياة وحرصوا أن يكون لهم في كل بلد فيه مجموعة من بني ميزاب هيئة من أهل الخبرة والرأي والصلاح تشرف على أحوال المجموعة من جميع نواحيها.

ويعتبر الشيخ البكري - رحمه الله - أحد الرواد الذين نظروا لهذا التنظيم ولتنظيم الميزابيين في ديار الغربية، فنجده يقول في رسالة مطولة:

"الآخذ بتلايب هذه الحركة الواسعة كونوا في المراكز الرئيسية جماعة أو جامعة تدعى (جماعة الحرفة) لها الكلمة المسموعة لدى السلطة الحاكمة، هي أشبه بالنقابة اليوم، تفض المشاكل التي تقع بين العمال ومستخدمهم، تقدر الأجور، توجد العمل للعاطلين، ترجع المستضعفين - الذين لا يستطيعون حيلة ولا يستهدون سبيلا - إلى وادي ميزاب، وقد بلغ بهم الأمر أحيانا إلى طرد الكسالى المتسكعين الذين يشوهون صورة الميزابيين على يد السلطة التي لا تتردد لتطبيق ما ارتأته صالحا بها.

اتخذوا لهم في كل بلدة تعتبر كمركز للحركة الاقتصادية من البلدان التي يكثر عليها توارد التجار الميزابيين، إما دارا لنزول المسافرين الميزابيين من الإياضية مجانا يطلق عليها (دار العرش) وفيها قاعة للصلاة ومجهزة بالمرافق ووسائل الطهارة، وعليها قيم وطباخ في آن واحد يغنيهم في أكلهم عن الاحتياج إلى الخارج وإمام مسجد للصلاة. وربما كان في عمارة ذات شقق لنزول المسافرين الميزابيين من الإياضية، ومقبرة لدفن موتاهم (محضنة ومحروسة) فيها مكان فسيح لاجتماعاتهم العامة، لا سيما الأعياد والمواسم. ولقد أضافوا إلى ذلك في هذا العهد الأخير مدرسة بكل بلدة تكثر فيها ناشئتهم، ولو ذهبنا نعد المساجد وديار العرش والمقابر والمدارس التي أنشئوها لبلغت العشرات، على أنهم لم يقتصروا على الجزائر بل أبعدوا النجعة على القطر التونسي فكان لهم فيها مثل هذا النظام، وإلى الغرب وحتى فرنسا إذ نشطت فيها حركة التجار الميزابيين فأنشئوا مراكز تجارية معتبرة، نبه أفواج العاملين منهم في شتى الميادين الاقتصادية وسوف لا يلبثون - إن شاء الله - أن يتخذوا لهم في المغرب وفي فرنسا (وقد تحققت أمنيته) ديارا على غرار ما لهم في الجزائر وتونس، وما ذلك على همتهم ببعيد. بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك، إلى البقاع المقدسة كجدة، ومكة، ومنى، والمدينة. فكان لهم في كل منها دار رحبة تسع المناء، تأوي حبيبهم، فلا يتعرضون للإهمال والإهانة كما يتعرض كثير غيرهم في مواسم الحج، تامة المرافق التي تيسر العبادة وتضمن الراحة".

وقد تولى كبار الحرفة التوجيه والرقابة والمتابعة وهي ثلاثة خيوط يرتبط بها أي فرد من بني ميزاب، في أي بلد يعمل فيه. فإن

أول ما يقدم إليه إنما هو توضيح خط السير ثم النصائح والتوجيهات، تتولى ذلك هيئة كبار الحرفة أو صاحب المحل، بعد ذلك تستمر مراقبته ومتابعته في مسيرته الطويلة. فإذا خيف عليه انحراف أو بدرت عليه بوادر تدل على ذلك استدعته هيئة كبار الحرفة وحاسبته على تصرفاته وقدمت له التوجيهات اللازمة. فإن لم تقف فيه هذه المواقف وانحرف فعلا بارتكاب ما لا ينبغي، أدب بالتوبيخ أو تبرأ منه.

قد يظن بعض الناس أن تأثير مجلس العزابة لا يتجاوز حدود الوادي وأن أولئك الميزابيين المغتربين قد خرجوا على نطاق تصرفه، أو على الأقل بعدوا عن إمكانية مراقبته وهذا الظن ليس صحيحا لأن مجلس العزابة يعتبر نفسه مسئولا عن حماية المجتمع، دينيا واجتماعيا وخلقيا.

النقابة التجارية الدفاعية:

أسس التجار الميزابيون سنة 1939م النقابة التجارية الدفاعية عن عمالة (قسنطينة، الجزائر، ووهران). وذلك للدفاع عن حقوقهم وتمثيلهم لدى السلطات الحاكمة.

أهمية النقابة التجارية الدفاعية:

تهدف النقابة التجارية الدفاعية كما جاء في قانونها الأساسي إلى:

- ربط الصلات بين أعضائها وذلك قصد تكوين شراكات بينهم.

- الحرص والدفاع على حقوق التجار والصناعيين الميزابيين في الغربة.

- تمثيل التجار والصناعيين الميزابيين أمام السلطات الحكومية والإدارات العامة.
- تأييد مطالب أعضائها في المرافعات وأمام كل المجالس للدفاع عنهم وفق مبادئ المصلحة العامة.
- إمداد أعضائها بالمعلومات والإشارات اللازمة.
- والنقابة تخول حق الانخراط لكل ميزابي تاجر أو صانع أو متجول أو وكيل تجاري وغيرهم بصفة العضوية الكاملة.
- وتعقد النقابة جلسات عامة مرة كل سنة، لتقييم وعرض تقدير السنة الفارطة. وتتولى إدارتها هيئة تسمى (الجماعة النقابية) وتتكون من:
- رئيس النقابة.
- نائب الرئيس، يمثل كل نائب كنلة من كتل الصناعة والتجارة.
- الكاتب العام للنقابة.
- أمين المال.
- أمين المال المساعد.
- 07 سبعة متصرفين منتخبين تعينهم الجمعية العامة من مدن العمالة.
- 07 سبعة متصرفين إضافيين للنقابة تعينهم الجمعية العامة من مختلف مدن العمالة.
- وقد نص القانون الأساسي على أن مدة عمل النقابة لا تتجاوز السنة قابلة للتجديد. ويشكل أعضاء النقابة مكتباً مؤلفاً من: متصرف أول واستشاريين (02)، وكاتب مساعد مستأجر (للكتابنة باللغة الفرنسية) وذلك كل سنة.

- وتعقد الجماعة النقابية اجتماعاتها كلما دعت الضرورة أو بطلب من رئيسها وكاتبها العام، على أن لا يقل عدد الحضور عن 10 أعضاء وهو النصاب القانوني لانعقاد الجلسات. ويحق لأحدهم توكيل من ينوب عنه.
- أما التصويت فيكون بغالبية الأصوات الحاضرة أو المنابة.
- وعند تساوي الأصوات يحسب صوت الرئيس بصوتين وترجح كفة الجناح الذي انظم إليه الرئيس.
- ويلقب رئيس جماعة النقابة برئيس النقابة التجارية الدفاعية. ووظيفته هي: تولى جميع اجتماعات النقابة بالإضافة إلى رئاسة اللجان والبعثات وتمثيل النقابة والمقاضاة باسمها وتوقيع السجلات والوثائق الإدارية والمالية باسم النقابة. بالإضافة إلى بعض النقاط التنظيمية التي نص عليها القانون الأساسي للنقابة. ويستخلفه عند غيابه أحد نائبيه بالتسلسل.
- كما يكلف أمين المال بتسيير إيرادات ومصاريف النقابة ومسك دفاترها المحاسبية وتوقيع الصك رفقة رئيس النقابة.
- أما الكاتب فدوره تحرير محاضر الجلسات ومقررات الجماعة النقابية والجلسات العامة، وتقييد بريد النقابة الوارد والصادر.
- أما الكاتب المساعد المستأجر، فيكلف بتلخيص جميع الجلسات والمقررات وترجمتها وبترتيب المطالب والعوارض والشكايات لتقديمها للسلطات الإدارية الحاكمة، وكذلك أمام سائر المجالس واللجان باللغة الفرنسية.
- وتتألف المجموعة النقابية من ثلاثة كتل هي:
- كتلة تجار الأقمشة.
- كتلة تجار العطور.

- كتلة ثالثة تضم باقي فئات التجار والصناعيين.

و يلاحظ أنه في عمالة قسنطينة هيمنة تجار الأقمشة والعمود، وذلك ما جعلهم يشكلون كتلة كبيرة. إذ تعين كل جماعة مكتباً مؤلفاً من رئيس وكاتب ومستشار منتخبين من بين التجار الميزابيين في تلك البلد.

ولا يحق لإحدى الكتل المرافعة أو المقاضاة إلا عن طريق النقابة الدفاعية، إذ هي الممثل الشرعي أمام السلطات الإدارية الحاكمة.

وأول من ترأس النقابة الدفاعية التجارية بعمالة قسنطينة: الحاج صالح بن محمد زكري، وكان كاتبها أيوب بن عمر طلاي. وقد لعب دوراً كبيراً في التصدي لمؤامرات التجار اليهود وإحباط مخططاتهم.

ويمكن للنقابات أن تتخذ تحالفات فيما بينها سواء كانت محلية أو في العمالة، وفي داخل الوطن أو خارجه. كما أن النقابات الدفاعية لها حق طرد أي فرد يسيء إلى سمعة التجار الميزابيين ويمس بشرفهم، بارتكابه لمخالفات وعدم الوقوف أمام حدودهم التي ذكرناها سابقاً. وذلك بعد عقد جلسة خاصة يتم بعدها إعادته إلى الوادي ومشاورة العزابة في حقه.

كما أن القانون الأساسي خول للمكتب إنشاء قانون داخلي يتولى إجراءات تسيير الجمعية النقابية وإدارتها.

البعد الاجتماعي والثقافي لنظام الغربة:

امتازت الفترة الأخيرة من العهد الثالث للميزابيين بنهضة فكرية وثقافية، قام بها عدد من العلماء الميزابيين الذين اغتربوا ورحلوا بعيداً لتحصيل العلم والثقافة. فمنهم من أم مصر ومنهم من قصد عمان وغيرها من البلاد الإسلامية، ولما رجعوا منها انكبوا على الإرشاد والتدريس وتخرج على أيديهم نخبة من المشايخ واصلوا المسيرة ونشروا العلم وانقطعوا للتأليف في مختلف الفنون وفي علوم الشريعة والعربية بصفة خاصة، وإذا القينا نظرة عامة على القرون السابقة لهذه الفترة من تاريخ بني ميزاب، وجدنا أن بني ميزاب اكتفوا طوال هذه القرون بالإستهلاك الثقافي. فهم كانوا معتمدين كلياً على الكتب الإباضية من وارجلان وجربة وجبل نفوسة وغيرها من مناطق الإباضية. وكلما شعروا بالفراغ الثقافي طلبوا من إخوانهم أن يمدوهم بأحد المشايخ. ولكن الجديد في هذه الفترة اعتماد بني ميزاب على أنفسهم وانتقالهم من موقف المستهلك إلى موقع المنتج في ميدان الثقافة. فهناك عدد منهم تركوا لنا تراثاً عظيماً من الإنجازات سواء تعلق الأمر بما ألفوه أو بما أصلحوا في الميادين الاجتماعية. واستمر تأثير نظام الغربة خلال العصر الحديث بما جناه الميزابيون من ثروات طائلة انعكست على المحاور الاجتماعية والثقافية ويمكن تجسيد هذه العينات للبعد الثقافي لنظام الغربة على المجتمع الميزابي كما يلي:

ففي سنة 1927م شرع في توسيع المدرسة القرآنية في بني يزجن على يد الحاج صالح لعل، وفي سنة 1932م قام جماعة تجار العطف في العاصمة بفتح قسم للتعليم الابتدائي برعاية الشيخ أحمد بن الحاج يحي بكلي وافتتحت المدرسة في محضرة المسجد العتيق واستمرت إلى صيف سنة 1937م.

وفي فاتح جانفي 1937م افتتحت مدرسة في محضرة أبي سالم برعاية الأستاذ محمد بن بهون الحاج إبراهيم فقد استمر يعلم فيها إلى سنة 1946م.

وكانت نشأة معهد القرارة في يوم 21 ماي 1925م بدار وقف لوالد الشيخ ببيوض، كانت نواة لمعهد الحياة وفتحت داخلية الحياة مباشرة بعد افتتاح المعهد لإيواء الطلبة الذين يلتحقون به من خارج القرارة، وقد لعبت أموال الغربية دورا كبيرا في تمويل البعثات العلمية البيوضية بالإضافة إلى تسيير المنشآت الدينية الإباضية.

وفي سنة 1941م افتتح الشيخ الحاج محمد بابانو دارا للعلم للشيخ إبراهيم حفار فكانت المعهد الجابري، ولما كان أمر 1892م يقضي بأن لا تفتح مدرسة عربية بالجزائر إلا برخصة من الحكومة. فإن الجمعيات المشرفة على التعليم الحر بكل بلدة تقدمت بطلبات الترخيص لها بالنشاط في مختلف ميادين الثقافة.

نشأت الجمعية الخيرية الوطنية في 01 أوت 1927م، وأنشأت في بريان مدرستها في: 15 جويلية 1928م، وفي سنة 1939م استقدمت الجمعية العلامة الشيخ عبد الرحمان بن عمر بكلي (الشيخ البكري - رحمه الله -). فكان أستاذا بالمدرسة ومديرا لها، وشيخ مسجد بريان ورئيسا لعزابتها. وفي سنة 1946م صارت الجمعية الخيرية تسمى جمعية الفتح فاعترفت بها الحكومة.

ومن جهة أخرى فإن جمعية الحياة تسمت بهذا الاسم في: 24 يوليو 1937م.

ونشأت جمعية الإصلاح بغرداية في: 14 أفريل 1928م. لتوافق عليها الحكومة في: 24 ديسمبر 1928م. وأسست مدرسة الإصلاح عام 1932م. ولعب نظام الغربية دورا كبيرا في تأسيس

جمعية الوفاق بالعاصمة سنة 1929م لتظم شتات الشباب الميزابي وتجمعهم للتفكير لخدمة مصالحهم الأدبية والاقتصادية، ولتنتشر الثقافة والتثذيب بواسطة محاضرات الوعظ والإرشاد.

وأنشأ التجار اليزجنيون في قالمة جمعية الاستقامة عام 1930م. وأنشأت عام 1931م مدرسة وناديا في قالمة.

وفي سنة 1946م أنشأت في بني يزجن جمعية بنفس الاسم. فأسست فيها مدرسة عام 1947م، أما في العطف أنشأت بها مدرسة عصرية هي مدرسة الشبيبة سنة 1931م، ثم ترسمت هذه الجمعية باسم النهضة عام 1945م حيث أنشأت جمعية النور في بنورة بنفس السنة.

وقد تجلت اهتمامات نظام الغربية لدى هذه الجمعيات من خلال بنود تأسيسها في القانون الأساسي لكل الجمعيات حيث نجد في بعض فصولها ما يلي:

الفصل 15 للجمعية: فتح معاهد لتعليم القرآن وحفظه والمبادئ الدينية لميزاب وخارج ميزاب حيث يوجد الميزابيون.

الفصل 16 للجمعية: تعنتي الجمعية بالأولاد المولودين من الميزابيين في بلاد الشمال وخارج ميزاب. بتقيد أسمائهم وعشائهم، وتنقيفهم وحفظهم على قدر الإمكان والاستطاعة وبالفقراء والمساكين والعاجزين عن مساعدتهم على قدر الإمكان.

الفصل 17 للجمعية: الاعتناء بالمساعدة ومد يد العون لكل تلميذ فيه ذكاء واستعداد لتحصيل العلم أدبيا حتى لا ينقطع حملة الدين من هذا الوطن.

الفصل 18 للجمعية: إيجاد مكتبة على نفقة الجمعية تجمع فيها كتب الإباضية وغيرهم مما تمس الحاجة إليه كالتاريخ وغيره. وتحفظ في خزائن خاصة لمن أراد البحث والنسخ.

وقد أسست أول مدرسة عربية نظامية في تبسة سنة 1913م وهي مدرسة الصدقية، وقد شمل اهتمام الميزابيون في الغربية إلى أن أسسوا في سنة 1920م بتونس مدرسة السلام القرآنية الحرة واستمر إسهام نظام الغربية في الجانب الثقافي بعد ذلك في الكثير من المجالات كالإسهام في تمويل الأعراس الجماعية في وادي ميزاب، والإسهام في طباعة الكتب والمخطوطات وتشجيع الأبحاث التي تعود بالنفع على المجتمع الميزابي.

الخاتمة العامة:

للإجابة على الإشكالية التي طرحتها والتي مفادها: ما هي الآليات والطرائق التي تنبأها المجتمع الميزابي في تنظيم وتسيير أعماله التجارية؟ وما هو الدور الذي لعبه الشيخ البكري في هذا المجال من خلال مقالاته؟.

تعرفنا على المجتمع الميزابي وكذا المذهب الإباضي: إذ هو محل الدراسة. واستنتجنا أن المذهب الإباضي الإسلامي بريء من الكثير مما نسب إليه ظلما وبهتاناً، وأن خروجهم خروج سياسة لا خروج دين. وذلك ما أكدته الشيخ البكري الذي ابرز شخصية المؤرخ الفقيه من خلال إسهامه في الكتابات الدينية التاريخية.

ثم تعرضنا لحديثات الموضوع وذلك بمحاولة إثبات أو نفي مجموعة من الفرضيات التي لها دوافعها وهي:

- فرضية خصوصية المذهب الإباضي: والتي قلنا أن تواجد نفس الظاهرة في بلدان شقيقة أخرى يربطها عامل المذهب الإباضي مدعاة إلى لفت الانتباه. لذلك حاولنا التعرف على خصوصية المذهب الإباضي في الجانب التجاري على وجه الخصوص فاستنتجنا مجموعة من الاستنتاجات أهمها:

- على المستوى العقدي: يمتاز الإباضية بالتشدد الكبير على المستوى العقدي كما يبرز مفهومان خطيران هما: الوعد والوعيد، والولاية والبراءة.

- على المستوى الفقهي: يمتاز المذهب الإباضي بالمرونة أحيانا وبالتشدد أحيانا أخرى، كما أن هنالك بعض الفروق الخاصة به كمذهب إسلامي على شاكله كل المذاهب الأخرى، حاولنا تبيينها.

والجدير بالذكر هو الإسهام الحضاري للشيخ البكري في هذه النقطة أيضا فهو الفقيه العالم، الأديب والمؤرخ. وللإشارة فقد أعجبت كثيرا باهتمام الشيخ بالتعاملات المالية الحديثة لذلك أمل أن أخصص لها بحثا إن وفقني الله إلى ذلك.

بعد دراستنا للمذهب الإباضي وخصوصيته تبين لنا تأثير المذهب الإباضي في الجانب التجاري. كما تبين لنا غنى هذا المذهب وأهميته بالنسبة للفكر الإسلامي. لذا ندعو إلى فتح أذان القلوب للتداول وفهم بعضنا بعضا.

- ثم افترضنا عامل التاريخ: باعتباره أحد عناصر مكونات الحضارة حسب المفكر الجليل: مالك بن نبي. فإسهام التاريخ لا ينكر في إحداث التراكمات المعرفية. وأثبتنا ذلك بما لا يدع مجالا للريب، فابتداء من الدولة الرستمية وما شكلته من أهمية بالغة في الجانب التجاري إلى وارجلان وسدراتة ثم إلى وادي وجبال بني مصعب. واستنتجت أن التجارة موروث ثقافي بالنسبة للشخصية الميزابية. وأن الميزابي ألف الترحال بحثا عن الرزق، كما لاحظنا وجود بعض التقنيات الهامة لا سيما على المستوى الإداري العالى فقد تميزت بوجود تخطيط إستراتيجي فعال تجسد في إحداث أنماط دبلوماسية وعلاقات عامة شكلت ضمانات حقيقية للتجارة الميزابية. فتطرقنا لمفهوم الأمن التجاري الذي فرضه الميزابيون على مر التاريخ. كذا اتفاقاتهم وعلاقاتهم بالآخرين.

ورأينا هنا أيضا إسهام المؤرخ والمحلل والمنظر الشيخ البكري - رحمه الله - الذي خبر الناس وسبر أغوارهم، وإسهامه في هذا المجال كبير وعظيم.

وتم تناول بعض التقنيات والمعارف الأخرى كنظام التخصص والحسبة وغيرها... من المعارف التي تم تداولها. وكذا إسهام الميزابيين على مر التاريخ في فعاليات الحياة الوطنية بدءا بالرسميين إلى الأتراك والفرنسيين.

- بعدها تم فرض التنظيم، باعتباره أداة علمية حضارية تسعى إلى إيجاد النمط الإداري الناجع، وما أتأسف له وجود هذا النظام الفريد البديع الذي أسس في القرن الخامس الهجري وأحدث طفرة حضارية ولم يجد الدراسة الكافية بدعوى الجاهلية الخرقاء التي لازلنا نتخبط في برائتها للأسف من جهة ولحقق العدو الخارجي من جهة أخرى. وحاولت أن أبين خصائص هذا النظام البديع من هرمية وفصل في السلطات وكذا وظائفه الإدارية ومستوياته الإدارية. والجدير بالذكر أن الشيخ البكري ألف رسالة هامة في نظام الغزابة تزيد عن 100 صفحة، لا نعلم عنها شيئا.

واستنتجت سبق المجتمع الميزابي إلى نظرية التنظيم، وأنه مجتمع مؤسسي لا عنقودي يعتمد على المؤسسات القارة الناجعة التي لها دور في الداخل والخارج وبيئت تأثير هذا النظام على الجانب التجاري.

لأنقل إلى ظاهرة الغربة التي شدد انتباه المجتمع الجزائري والعالمي، فعرفت دوافعها من ضعف النشاط الرعوي والمردود الفلاحي وصعوبة ووعورة المنطقة. وكذا تم تناول نشأتها وتطورها، ثم تنظيم التجار في الغربة والبعد الإنساني في ذلك. ولاحظت إسهام الشيخ البكري الذي كان سباقا لمعالجة هذا الموضوع في رسالته المطولة التي استفاد منها الشيخ علي يحي معمر وغيره. وختمت

- فتح ورشة عمل لدراسة فقه البيوع المقارن بين المذاهب الإسلامية، وذلك للنقص الكبير في هذا الباب من جهة، ولقول عمر: "من لا يعرف فقه البيوع لا يدخل السوق".

- ضرورة تنظيم ملتقى إداري عام مع إحدى الجامعات المتخصصة لدراسة التنظيم الإداري الإسلامي أو المنهج الإسلامي في إدارة الأعمال، والعينة جلية واضحة في نظام العزابة إلا إذا صمت الأذان، وغلقت بصائر القلوب والعياذ بالله.

- وهو خاص بهذا الملتقى الكريم: ضرورة جمع مادة مراسلات الشيخ البكري للشيخ علي يحي معمر. فالشيخ علي يحي معمر مرارا ما أكد في كتبه أنها مجموعة كبيرة من الرسائل. قد تطول إحداها إلى 100 ورقة... وهي مادة معرفية كبيرة وجلية.

- ضرورة تفتح المجتمع الميزابي على التقنيات الحديثة في التعامل التجاري كالتسويق والتجارة الإلكترونية وغيرها... وذلك ما يساعد على دخول اقتصاد السوق بكل قوة ونجاعة وثقة.

- تنمية الوعي الادخاري للمجتمع الميزابي، وذلك بتشكيل أرمادات صناعية على شاكلة ما مورس قديما في الجانب التجاري نقتحم سوق البورصة والأوراق المالية لنفعلها وكذا تحريك سوق رأس المال الذي تعتبر وادي ميزاب أحد جيوبه الهامة.

إن الأيام قد تخفي الكثير، ولكن الهرم الذي قاعدته أسست على أسس صلبة ومثينة، لا يخاف الرياح العواتي. والمجتمع الميزابي مجتمع مسجدي يستمد أصوله من عمق رحم التاريخ. لذلك فعليه أن يحاول باستمرار إيجاد آليات المرونة الكافية للتعامل مع المستجدات الطارئة في عالم الاقتصاد الحديث، مع الحفاظ على

بحثي بتأثير نظام الغربية التجاري على الحياة الثقافية والاجتماعية بوادي ميزاب والتي كان من فضائلها علينا وعلى هذا البلد الطيب بريان أن وفد الشيخ البكري عالما عاملا، محققا باحثا، شيخا عزابيا وعين من أعيان بريان العظام. فله الحمد الذي جعل تسعة أعشار الرزق في التجارة، وخص أهل الإسلام في وادي ميزاب بكثير من أعشار التجارة للعلم والعلماء.

والجدير بالذكر هو أنني أغفلت الكثير من النقاط وذلك لأسباب ليس مقام شرحها الآن، أهمها: التجارة الداخلية بوادي ميزاب: الدلالة الطبيعية، تجارة القوافل، وتنظيم السواق بوادي ميزاب. وكذا نظام الجولة وغيرها...

وأوصي في ختام هذا البحث بمجموعة من التوصيات الخاصة في نقاط محددة التالي:

- وجوب فتح باب التحاور بين المذاهب الإسلامية لا سيما المالكي والإباضي، لفهم جماليات وخصائص بعضنا البعض.

- وجوب إعادة الاعتبار لمفهوم الولاية والبراءة كمفهوم حضاري في المجتمع الميزابي، خوفا من انفلات زمام الأمور لما نراه ونسمعه. وللإشارة فإن في التنظيم الاجتماعي العام للمجتمع الجزائري ما يشبه ذلك، على أنه ليس خصوصية في المذهب المالكي وهو ما يسمى في عرف الجماعة "دعوة الخير ودعوة الشر"، وهو شبيه إلى حد كبير بالولاية والبراءة.

- ضرورة تقديم مفهوم الوعد والوعيد للعالم الإسلامي، لما فيه من خير كبير. لا سيما البعد السلوكي والحضاري لهذه القاعدة.

خصوصية العظيمة سابقة الذكر. متذكرا قول العلامة الجزائري مولود قاسم نايت بلقاسم في تعريفه للأصالة حين قال: "هي أن يكون الإنسان ابن عصره، مع البقاء على أديم مصره، ودون أن يصبح نسخة غيره".

ختاما أملى أن أكون وفقت في تناول جزء ولو بسيط من حيثيات الموضوع بكل موضوعية، رائدي في ذلك العلامة ابن الصغير المالكي الذي قال: "وأن أتم الصدق فيها ولا أحرفها على معانيها، ولا أزيد ولا أنقص منها. إذ النقص في الخبر والزيادة فيه ليس من شيم ذوي المروءات ولا من أخلاق ذوي الديانات".

فما كان من توفيق فمن الله الواحد المنان، وما كان من زلل ونقصان فمني ومن الشيطان، هذه بضاعتي مزجاة غير موفاة فإن صادفت إحسانا فإمسك بمعروف. وإن كان غير ذلك فتسريح بإحسان والله المستعان.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى

بوداود بومدين

مكلف بالدراسات بإذاعة غرداية المحلية

ومختص في إدارة الأعمال.

بلاد بريان يوم: الجمعة المبارك: 26 ذو القعدة 1422 هجرية
الموافقة للثامن من شهر فبراير سنة 2002 للميلاد.

